

نجيب محفوظ

أمام العرش

تبسيط وتيسير محمد المعلم



دار الشروق

أمام العرش

ميسرة ومبسطة

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للناشئين ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .

محمد العاصم

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع حراد حى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بريكا شروق - فاكس ٩٣٥٩١ ٥ SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣
بريكا دالمشراق - فاكس SHOROK 20175 LE

نجيب محفوظ

امام العرش

تيسير وتبسيط محمد المعلم

الخلاف والرسوم : مصطفى حسين

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شخصيات المحكمة

أوزوريس : معبود مصرى قديم . نشر الخير فى البلاد ،
وعلم الناس الزراعة . وحسب العقيدة
المصرية القديمة ، عندما انتقل إلى العالم
الآخر ، كان يحاكم الموتى .

إيزيس : زوجة أوزوريس ، وشريكته فى نشر الخير
فى البلاد . وكانت رمزا للأمم والإخلاص .

حورس : ابن أوزوريس وإيزيس . ورث عرش أبيه
على الأرض . وأصبح رمزا للملوك الفراعنة .

١

انعقدت المحكمة بهيئتها المقدسة في قاعة العدل . وكانت جدران القاعة عالية ، ومنقوشة بالرموز الإلهية ، وسقفها مذهبا .. تسبح في سمائه « أحلام البشرية » . وفي الصدر ، كان أوزوريس يجلس على عرشه الذهبي ، وإلى يمينه إيزيس تجلس على عرشها ، وإلى يساره حورس على عرشه . وعلى بعد قليل من قدميه ، ترتع نحوت كاتب الآلهة ، وأسند الكتاب الجامع إلى ساقيه المضمومتين . وعلى جانبي القاعة ، صفت الكراسي المكسوة بقشرة من الذهب الخالص ، تنتظر الذين سيكتب لهم الخلاص من القادمين .

وقال أوزوريس :

— كُتِبَ على البشرية منذ القدم ، أن تصحبهم حياتهم في الدنيا عند عبورهم عتبة الموت ، وتتبعهم ، كالظل ، حاملة أفعالهم ونواياهم ، وتتجسّد كلها فوق أجسامهم العارية .

وقد تقرر أن تكون هذه الساعة هي ساعة الحساب الفاصلة ، لمن حكموا مصر أو كان لهم دور في تاريخها ..

فانعقدت هذه المحكمة ، لتقوم بسباحة طويلة عبر الزمن ، منذ بدأ تاريخ مصر القديم .. وتقدم — عبر تلك السباحة — نماذج من الحكام والأفراد ، وتصدر حكمها فيهم ، بعد أن تحسب لهم ما قاموا به ، وتحسب عليهم ما كان يؤخذ عليهم .

* * *

وأشار أوزوريس إلى حورس . فصاح الشاب بصوت جهورى :
- الملك مينا .

ودخل من الباب فى آخر القاعة ، رجل متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين . وأخذ يقترب بجسمه القوى ، وملاحه الواضحة ، حتى وقف على بعد ثلاثة أذرع من العرش ، فى خشوع كامل .

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة . فراح يقرأ من الكتاب :
- أعظم ملوك الأسرة الأولى . حارب الليبيين وانتصر عليهم . هاجم مصر السفلى وضمها إلى مملكته الجنوبية ، وأعلن نفسه ملكا على مصر كلها ، وتوج رأسه بتاج مزدوج . حوّل مجرى النيل وأنشأ مدينة منف على الأرض التى نتجت عن التحويل .

وقال أوزوريس ، مخاطبا مينا :

- هات ما عندك .

فقال الملك مينا :

- لحّص تحوت كاتب الآلهة حياقي فى كلمات . ولكن ما أسهل الكلام وأشق العمل .

فقال أوزوريس :

- لنا رؤيتنا فى تقييم الرجال والافعال . فلا تبدد الوقت فى الشناء على نفسك .

فقال الملك مينا :

- ورثت مملكة الجنوب من أسرتى . وورثت معها حلما كبيرا : تطهير البلاد من الغرباء ، وإقامة وحدة أبدية بين مملكتى الجنوب والشمال . وكان صوت عمى أوز أقوى محرك لاشعال ذلك الحلم الكبير . كانت تنظر إلىّ باشفاق وتقول :
- أتقضى عمرك فى الأكل والشرب والصيد ؟ .

أو تقول بكبرياء :

- لم يعلمنا أوزوريس الزراعة ، لنقتتل حول توزيع ماء الفيضان .

وقلت لزوجتى المحبوبة ، إننى أشعر بجذوة تنقد فى صدرى ، ولن تبرد حتى أحقق الحلم . ووجدتها زوجة رائعة . قالت لى بحماس :

- لا تدع الليبيين يهددون عاصمتك ، ولا تدع الناس يقسمون الأرض التي وحدها النيل .
- وانكسبت على تدريب الرجال الأشداء ، وصليت إلى الآلهة ، لتهبى الرضا والنصر ، حتى تحقق ، على يدى ، الحلم الذج راود آتالى وأجدادى .
- فقال أوزوريس :
- أزهدت من أرواح الليبيين مائة ألف ! .
- كانوا المعتدين يامولاي .
- ومن أرواح المصريين شماليين وجنوبيين ، مائتى ألف .
- راحوا فداء للوحدة .. ثم حل الأمن والسلام ، وتوقف نزيف الدم الموسمى بسبب النزاع حول النيل .
- فسأله أوزوريس :
- لماذا لم تقنع فومك بالكلمة ، قبل اللجوء إلى السيف ؟ .
- فعلت ذلك مع جيرانى ، وانضم بعضهم دون قتال . ولكن حقق السيف فى أعوام ما لم تحققه الكلمة فى أجيال .
- يقدم كثيرون هذا المنطق ، ليغطوا إيمانهم بالعنف .
- فقال مينا بجرارة :
- استحوذ على مشاعرى مجد مصر وأمنها .
- ومجدهك الشخصى أيضا .
- فقال الملك مينا بتسليم :
- لا أنكر ذلك . ولكن الخير عمّ البلاد .
- وكان لأسرتك وأعوانك النصيب الأكبر منه . ولل فلاحين الحد الأدنى .
- مضى أكثر عهدى فى القتال والبناء . فلم أنعم بحياة القصور . ولم أهنأ بلذيد الطعام والشراب . ولم أمس من النساء إلا زوجتى . وكان لابد من مكافأة الأعوان على قدر أعمالهم .
- وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :
- مولاي ، أنت تحاكم بشرا لا آلهة . وكفى هذا الرجل الشجاع أنه زهد فى

النعم والكسل . فطهر البلاد من الدخلاء ، ووحد مصر ، فأطلق قوتها الكامنة ، وكشف عن خيانتها المطمورة . ووفر للفلاحين الأمن والسلام . إنه ابن اعتر بينوته . وصمت أوزوريس قليلا ، ثم قال :
- أيها الملك ، اتخذ مجلسك على أول كرسي في الجناح الأيمن .
فرضى الملك مينا إلى كرسيه . وأدرك أنه أصبح من أهل النعم في العالم الآخر .

٢

وصاح حورس :
- الملك زوسر ووزيره أمحتب .
وجاء من الباب في آخر القاعة رجلان .. أولهما وسيط القامة متين البنيان .
وثانيهما نحيل أميل إلى القصر . وكلاهما متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين .
تقدما نحو العرش حتى مثلا بين يدي أوزوريس .. الملك ووراءه الوزير .
فقال أوزوريس مخاطبا أمحتب :
- تقدم ، وقف في محاذاة الملك . فلا فرق في هذا المكان بين ملك ورعية .
فصدع أمحتب بالأمر . وراح تحوت يقرأ صفحة جديدة .
- الملك زوسر ، أسس الأسرة الثالثة ، غزا النوبة ، اكتشف مناجم النحاس في الصحراء الشرقية ، بنى الهرم المدرج .
والوزير أمحتب ، حكيم حفظت الأجيال حكمه ، وبرع في الطب والفلك والسحر والهندسة ، وقدّسه الناس بعد وفاته بمئات السنين .
ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام ، فقال :
- ورثت مملكة موحدة ، مترامية الحدود ، وفيرة الخيرات ، تحب السلام ، ولكن يطمع فيها المحيطون بها . فابتكرت سياسة لنفسى ، ولمن يجيء بعدى ، تقوم على أن الدفاع عن مصر يتطلب غزو القاطنين ورأى حدودها . ولما كانت النوبة هي أكثر البلاد التى تتسلل إلى وطنى ، فقد قررت توسيع الحدود الجنوبية ، بغزو النوبة الشمالية ، وإقامة معبد للإله فيها .

وعرف أُمحْتَب ، بعلمه وسحره ، الكنوز المخبوءة في الصحراء الشرقية . فأرسلت البعثات لاستكشاف بطن الأرض . فعثرنا على مناجم النحاس ، ووجدنا فيه منافع قيمة في السلم والحرب . وتكاثر الخير . فشيدت الهرم المدرج . كما شجعت العلوم وكافأت النابغين فيها ، ومضت الأيام في عهدى ، تحمل لمصر التقدم والقوة . ودعا أوزوريس أُمحْتَب للكلام ، فقال :

– نشأت أحب العلم والمعرفة . ودرست على كهنة منف العظام ، فحصلت على أعلى الدرجات في الطب والهندسة والفلك والسحر والحكمة . ولما علم الملك بتفوقى ، دعانى إلى العمل فى حاشيته ، رغم انتائى إلى الشعب الفقير . فأثبت جدارتى فى كل ما كلفنى به . فولّانى الوزارة . وعهد إلىّ ببناء الهرم ، فكان تحفة البناء فى عصره . قال أوزوريس للملك زوسر :

– غزت النوبة دون أن تبدر منها أى بادرة اعتداء على حدود مملكتك . فقال الملك زوسر :

– قلت يامولاي ، إننى اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها .

- نظرية لا يقول بها إلا قوىّ يضمّر العدوان ..
- كان واجبي الأول أن أدفع عن بلادى أى أذى محتمل .
- وشيدت معبدا للإله ، وخصّصت له أراضى كان ينتفع منها الفقراء .
- ولكن للمعابد حقوقا فوق كل الحقوق .
- كلام غير مقبول ، إذا لم تراع الظروف والملايسات .
- ولاذ الملك بالصمت ، فقال أوزوريس :
- ولم توفّر الرعاية الكافية لعمال المناجم ، فهلك منهم كثيرون .

فقال الملك :

- لا يتم إنجاز عمل كبير بدون توضحية وضحايا .
- ثم وجه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أُمحْتَب ، وقال :
- حدثنى : ماذا كان موقفك من سياسة الملك ؟ .
- فقال الوزير أُمحْتَب :



- كان رأيي أن العلاقات التجارية أفضل نتيجة من الغزو ، لتأمين الحدود . وأن نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ، ويعنى منها أهالى النوبة الفقراء . كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية ، قبل أن نوفر لها الرعاية الطبية والتدريب الكافى . ولكن الملك ، كان متلهفا على تحقيق الأمان والرخاء لمصر وأهلها . فقال له أوزوريس :

- لا تحاول الدفاع عن غيرك .. وحسبك الدفاع عن نفسك .
فطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :
- زوسر ملك عظيم رغم هفواته . وأحبت ابن عزيز تتشرف به أمة ..
وهنا قال أوزوريس :
- أيها الملك ، سأكتفى بلومك . فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين .
فجلس زوسر إلى يمين مينا . وجلس أحتب إلى يمين زوسر .

٣

ونادى حورس :
- الملك خوفو .
فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول ، عارى الرأس ، حافى القدمين ، متلفعا بكفنه ، حتى مثل أمام العرش بخشوع .
وقرأ تحوت كاتب الآلهة :
- الملك خوفو ، رأس الأسرة الرابعة ، صاحب الهرم الأكبر ، نظم الإدارة تنظيما لم نعرفه من قبل ولا من بعد . وفى عهده ، فاضت الأرض بالخيرات ، وعمرت الأسواق ، وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة . وانطلقت هبة فرعون فى الآفاق ، ساطعة كالشمس ، فهابتها القبائل وشمل السلام البقاع والناس .

ودعا أوزوريس الملك للكلام ، فقال :
- فُتنت منذ صغرى بالدقة والنظام . وآمنت بأنه يجب أن يكون لكل نشاط

قوانين وتقاليد ، لا فرق في ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجية . وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة . وهو ما أعاننى على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان . اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عاما ، فلم يتسلل إليه اضطراب أو إهمال ، ولم يحرم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ، ولم يغيب في الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة . هكذا خاض قومي تجربة فذة ، بنجاح مثالى ليس له نظير .

فسأله أوزوريس :

– هل سخرت أمتك لبناء قبر لك ؟ .

فقال الملك خوفو :

– لو أردت قبرا لحفرته في الجبل ، بعيدا عن الأعين الطامعة . ولكنى شيدت رمزا للخلود الإلهي ، يحوى من الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر . وقد تنافس الناس في العمل به . فأقت لهم مدينة كاملة ، وسعيدة ، ومقدسة . وكان الجهد يبذل من أجل الإله وحده . كان عملا يليق بالاحرار لا العبيد ! .

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ، الذين كتب لهم الخلود السعيد في العالم الآخر ، وقال :

– يُسمح بالكلام لمن يشاء .

فقال الملك مينا :

– عمل مجيد ، يذكرني ببناء منف العظيمة ، التي لم يمهلى العمر لأتمها .

وقال الملك زوسر :

– كان الأفضل ، توجيه القوة المتوفرة للغزو وتأمين الحدود .

فقال الملك خوفو :

– كانت خيرات البلاد المجاورة تأتي بلا قتال . وكان حرصى على أرواح رعيتى

لا يقل عن حرصى على المجد والخلود .

فقا له أوزوريس :

– ولكنك أزهقت روحا بريئة ، عندما تنبأ لك رجل بأن عرشك سيرثه طفل

ليس من سلالتك .

- على الملك أن يدافع عن عرشه ، دفاعه عن وحدة أمته . وفي سبيل ذلك .. يصيب ويخطئ .
- ألم تكن في ذلك تتحدى إرادة الإله ؟ .
- نحن نفعل ما نراه واجبا . ويفعل الإله ما يشاء .
- وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :
- هذا ملك منير ، مثل الشمس ، في سماء العروش . وكم من امبراطوريات تلاشت ، وبقي هرمه شامخا . وكثيرا ما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بنى وطنه ومن الغرباء .
- وعند ذلك قال أوزوريس :
- اجلس أيها الملك على كرسيك بين الخالدين .

٤

- ونادى حورس :
- الحكيم بتاح حتب .
- فدخل رجل نحيل صغير الجسم وقور ، لم يقلل من وقاره عرى رأسه وعرى قدميه . وتقدم على مهل ، حتى مثل في أدب ، أمام العرش . ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ :
- الحكيم بتاح حتب ، عاش مائة وعشرة سنوات . عمل وزيراً للملك أسيسى ، أحد ملوك الأسرة الخامسة . له وصايا قيمة ذائعة الصيت . ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :
- تلقيت العلم في معبد بتاح . وظهر تفوق منذ صباى . وعملت كاهنا مدة من الزمن ، حتى اختارنى الملك وزيرا له . وكانت أيام المجد والعظمة قد زالت ، وكأنها لم تكن . وتولّى العرش ملوك ضعاف لا قوة لهم ولا حكمة . شغلهم أهواؤهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف . فقوى نفوذ الكهنة . وطمع حكام الأقاليم في السلطة والمكاسب والمآرب .

فعانى الفلاحون من الظلم والهوان ، وارتفعت أنات الشكاوى ، وأصبحت الحياة قائمة .

ودأبت على تأمل الأحوال بمرارة ، وأذهلتني العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس . ولم أقصر في إبداء المشورة . ولكنها ضاعت وسط التسيب والأنانية . ولما بلغت العاشرة بعد المائة ، استدعانى الملك ، وأمرنى أن أضع كتابا أجمع فيه مختارات من وصاياى .. ففعلت .

فقال له أوزوريس :

- أسمعنا بعضا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

- إذا دعاك كبير إلى طعام ، فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تتكلم إلا عندما يسألك .

- ما سر اهتمامك بآداب المائدة فى وصاياك ؟ .

فقال بتاح حتب :

- قصدت فى الظاهر آداب المائدة ، ولكنى فى الحقيقة قصدت التعريض بجشع الكهنة ، الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف والمخصصات ، ويتخمون بالماكل والمشارب .

فقال أوزوريس :

- أسمعنا مزيدا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

- لا تخن من ائتمنك ، لتزداد شرفا ويعمر بيتك . وقصدت حكام الأقاليم ،

الذين دأبوا على بسط نفوذهم ، متحدّين وحدة المملكة .

وهنا تساءل الملك مينا :

- هل نسوا الدماء التى سفكت فى سبيل الوحدة .

فقال الملك خوفو :

- وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التى تقدست فى عهدى .

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه ، فقال :

- قلت أيضا « إذا دخلت منزل غيرك ، فاحذر أن توجه ذهنك إلى مخدع

- نسائه ، فكم هلك أناس من جراء ذلك » ..
- وقد قلت ذلك بناء على ماذاع عما يجرى في حريم القصر .
- فسأله أوزوريس :
- ألم يكن الملك يسىء معاملة حريمه ؟
- من أجل ذلك قلت أيضا : « إذا كنت عاقلا ، فدبر متزلك وأحب زوجتك ، شريكتك في حياتك ، وقدم لها الطعام والملابس ، وأحضر لها العطور ، وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، فباللبن تملك قلبها ، وأد مطالبها الحققة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .
- فقال أوزوريس :
- أسمعنا وصية موجهة للجميع .
- لا تترك التزین بزينة العلم ودمائة الأخلاق .
- فقال الملك مينا :
- لم يكن في عصرى حكماء ، ومع ذلك حرر الرجال أرضهم ووجدوا مملكتهم .
- وهاهو عصر انحلال وفساد ، لم يتمخض عن فعل شىء ذى قيمة ، ولكنه ترك بعض الكلمات الجميلة . فما جدوى الحكمة ؟ .
- فاعترض خوفو قائلا :
- الحكمة تعيش كاهرم وأكثر .
- وقالت إيزيس :
- لا تقللوا من قيمة ابنى الحكيم . نحن نحتاج إلى الحكيم فى عصور التدهور ، كما نحتاج إلى الطبيب فى أيام الأوبئة .
- وسیظل للكلمة الطيبة توهجها على الدوام .
- وأخيرا قال أوزوريس :
- اذهب أيها الحكيم إلى كرسيك بين الخالدين .

وصاح حورس بصوته الجمهورى :

- ثوار فترة الظلام ، الممتدة ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى .
فدخلت جماعة متفاوتة الأشكال والأحجام . ومضت فى أكفانها عارية الرؤوس
حافية الأقدام ، حتى مثلت فى صف واحد أمام العرش .
وتلا نحوت كاتب الآلهة صفحة جديدة :

- هؤلاء هم رؤوس الثورة ، قادوا الجماهير الغاضبة فى ثورة دموية مخربة ، ثم
حكموا البلاد عهدا طويلا ، امتد ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى .
ولم يتركوا وراءهم أثرا يدل عليهم ، إلا المعابد المهتمة والقبور المنهوبة والذكريات
المرعبة .

فقال أوزوريس :

- رشحوا من يمثلكم للكلام .
فأشاروا إلى رجل نحيل طويل : جامد الوجه كأنما شقّ من صخر .
وقالوا :

- أبنوم ، فهو أول من دعا إلى العصيان والقتال .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أبنوم :

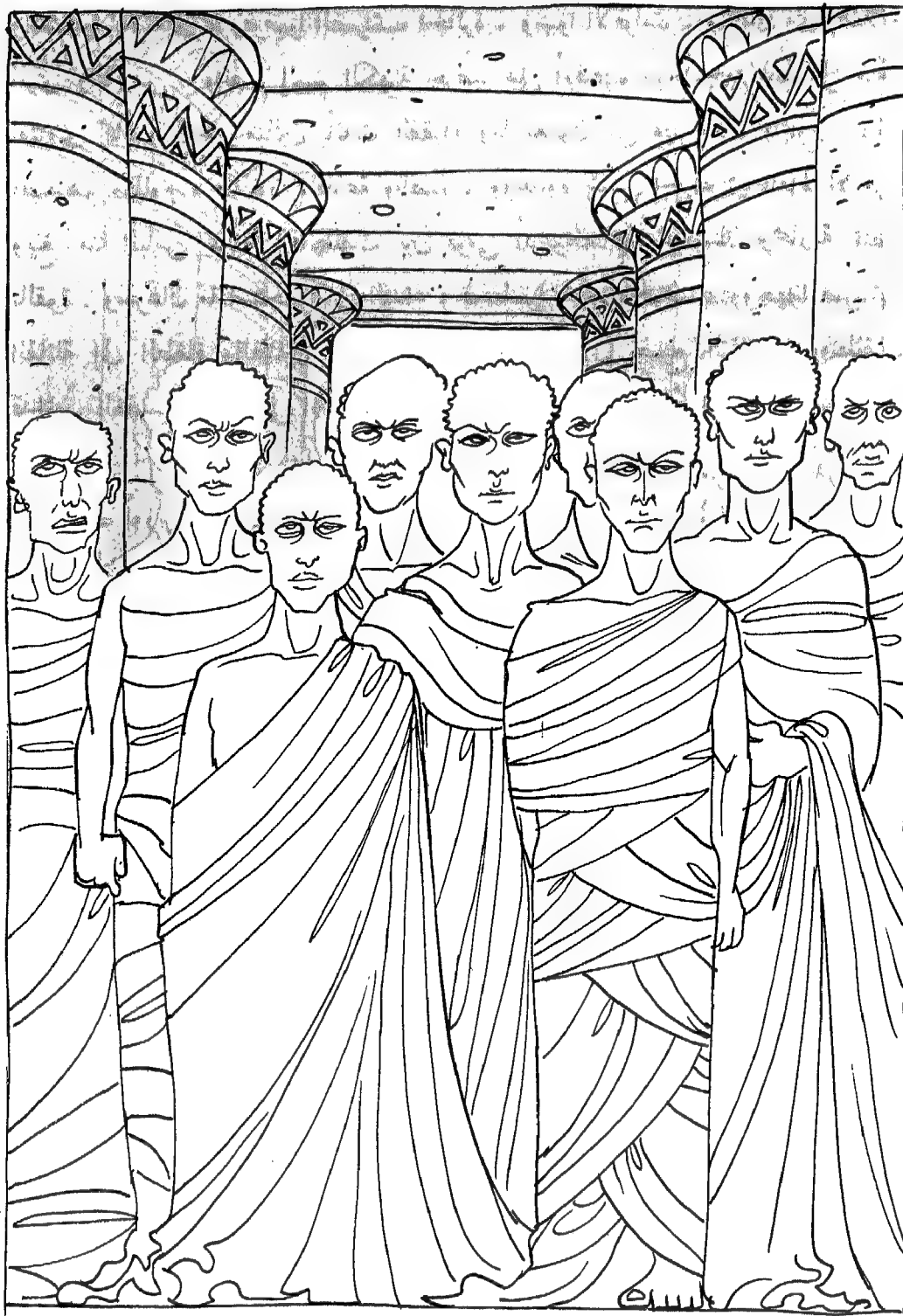
- تجاهل التاريخ أسماءنا وأفعالنا . فهو تاريخ يدونه الخاصة . ونحن من عامة
الفلاحين والصناع والصيادين . ومن عدالة هذه القاعة المقدسة أنها لا تُغفل أحدا .
وقد تحملنا من الآلام فوق ما يتحمل البشر . ولما انصب غضبنا الثائر على عفن الظلم
والظلمة ، نعتوا ثورتنا بالفوضى ونعتونا باللصوص . وما كانت إلا ثورة على
الطغيان ، باركتها الآلهة ..

فسأل خوفو :

- كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدسات ؟ .

فقال أبنوم :

- بدأت المأساة بضعف الملك بيبى الثانى وعجزه ، لكبر سنه ، وعدم معرفته بما



يجرى احوله ، وتصديقه لأكاذيب المنافقين له . فاستقل حكام الأقاليم بأقاليهم ، واستبدوا بالأهالى ، وفرضوا الضرائب الجائرة ، ونهبوا الأقوات ، وأهملوا أى إصلاح للرى والأرض . وانضم إليهم الكهنة حرصا على أوقافهم ، فأباحوا لهم كل منكر بفتاوى كاذبة ، غير مباليين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذل وجوع . وكلما قصدهم مظلوم ، طالبوه بالطاعة والصبر ، ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر . وبلغ منا اليأس غايته . فانطلقت بين قومى أدعوهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوة . وسرعان ما استجابوا إلى النداء ، فحطموا حاجز الخوف ، ووجهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين . وسرت النار المقدسة إلى جميع البلاد ، وانطلقت قذائف الغضب النائر على الحكام والموظفين ورجال الدين . ثم استولينا على مقاليد الحكم .

فقال أوزوريس :

– أما قرأت أشعار إيبور الحكيم التى ترثى المقدسات وما حل بالصفوة وضياع القيم فى عهدكم ؟ .

فقال أبنوم :

– كان أيبور شاعرا حقا ، ولكنه كان ينتمى إلى طبقة السادة الظالمين . ففاضت دموعه حزنا على الطغاة ، وعظم عليه أن يحل محلهم أبناء الشعب .

فقال الحكيم بتاح حتب :

– أنت تتحدث يا أبنوم ، من منطلق حقد أسود . وهو إثم كبير .

فقال أبنوم :

– السادة الظالمون هم الذين زرعوا فى صدورنا هذا الحقد .

فقال الملك زوسر :

– ما أسمع .

– عجيب ، وحق الآلهة ، ما أسمع . ما مصر إلا « مركب » من تقاليد مقدسة ، إذا اختل منه عنصر تطاير البناء وتفتت . ففرعون هو الإله المجسد . والصفوة هم نوابه الذين يعكسون نوره . والموظفون هم أتباعه المبلغون لرسائله . فكيف يحل مكان كل هؤلاء ، قوم من الفلاحين والصناع والصيادين ؟ .

فقال أبنوم :

لقد حلوا محلهم بالفعل ، وأثبتوا أنهم خير منهم . وأثبتوا أن الآلهة تتجسد فيمن يرفع راية العدل والرحمة ، أيًا يكون ..

فهتف الملك زوسر :

- يالك من وقح ! .

فالتفت إليه أوزوريس قائلا :

- لا اسمح بتجاوز الأدب في المناقشة . اعتذر .

فقال زوسر في خشوع :

- أقدم المذرة والأسف .

فقال أوزوريس مخاطبا الجالسين على كراسى الخلود :

- تسمح المحكمة لكم بالمناقشة ، ولكن في حدود الأدب .

وتذكروا جيدا أنكم ستناقشون أناسا جدت لهم معتقدات غير معتقداتكم .

ثم التفت إلى أبنوم ، وقال :

- كان عهدكم عهد ظلام . فلم يترك آثارا ولا وثائق ؟ .

فقال أبنوم :

- ذلك من فعل المؤرخين وإغفالهم لنا . لقد أقام الفلاحون حكومة من

أبنائهم ، حكمت البلاد ، فاستتب الأمن ، وانتشر العدل ، وامتد ظل الرحمة .

شبع الفقراء ، وتلقوا العلم والمعرفة ، وتولوا أكبر المناصب . وقامت دولة لا تقل في

عظمتها عن دولة الملك خوفو . ولكنها لم تبدد المال في بناء الأهرامات ولا في

الحروب . وأنفقته في النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن . ولما

رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك ، أحرقوا وثائق البردى المسجلة فيها أعمالنا .

فقال الملك خوفو :

- غابت عنك الحكمة من بناء الهرم .

وقال الملك زوسر :

- وغابت عنك الحكمة من إعلان حرب لغزو بلد على الحدود .

فقال أبنوم :

- كان شعارنا أن تربية فلاح خير من بناء معبد .
 فقال الحكيم بتاح حتب :
 - نطق بالكفر .
 فقال أبنوم :
 - ليس الإله بحاجة إلى معبد . ولكن الفلاح بحاجة إلى التربة . من أجل ذلك
 باركتنا الآلهة ، فحكمتنا مئات السنين في سلام ورخاء .
 فسأل الملك زوسر :
 - إذن فلماذا انهارت مملكتكم .
 - انهارت عندما نسي الحكام أصلهم الذى نشأوا فيه ، وتوهموا أنهم منحدرون
 من صلب « رع » ، فأصابهم التكبر ، وتسَلَّل إليهم الظلم ، فنزل بهم ما ينزل بكل
 ظالم .
 فقال أوزوريس :
 - تخلل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرها دين أو خلق أو قانون .
 فقال أبنوم :
 - أشهد أمام عدالتكم بأننى لم آمر بها ، ولم يبلغنى خبر عنها ..
 وهنا قالت إيزيس :
 - أقر لهذا الابن بأنه من أحكم أبنائى وأنبأهم . سعدت بلادى في عهده سعادة
 لم تذوقها من قبله ولا من بعده .. وإيمانه يشهد له بالصدق والتقوى . أما ما ارتكب
 من جرائم في ثورته ، فلا تخلو الجواهر الثائرة من مجرمين يندسون في جموعها ،
 يشبعون نزواتهم .
 وفكر أوزوريس وقتا ثم قال :
 - اذهبوا ياسادة إلى مجالسكم بين الخالدين .

ونادى حورس :

- الملكة حتشبسوت .

فدخلت امرأة متوسطة القامة ، مليئة البناء ، ومضت فى كفنها حتى مثلت أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- مضى عصرها فى سلام ورخاء . وقد شيدت معبد الدير البحرى . وأحيت الصلات ببلاد نبت ، وأحضرت منها شجرة المر ، وغرسته فى ساحة المعبد . وانهالت عليها الجزية من البلاد التابعة لمصر ، فانتشر الثراء ورضى الناس .

ودعاها أزورويس إلى الكلام ، فقالت :

- كنت الوحيدة المستحقة لعرش أبى تحتمس الأول . فأنا آخر من بقى من ذرية الملكة أحعموس ، ودمائى ملكية إلهية بخلاف أخى تحتمس الثانى ، الذى كان ابنا لزوجة غير شرعية تدعى موت نفرت ، وأخى تحتمس الثالث الذى كان ابنا لمخطئة تدعى إزيس .

وقد اضطرت للزواج من تحتمس الثالث ، احتراما لتقاليد بالية ، تستعيب حكم النساء . وعمل كاهنا فى معبد آمون . ولم يكف عن المكاييد للوصول إلى العرش . وعاونته على ذلك كهنة آمون . وقد تغلب علينا أخى تحتمس الثانى بفضل تنظيم حزبه ، وانتزع الملك منا . ولما مات عاد الحكم إلى ومعى تحتمس الثالث . وقد فرضت حصارا حوله من الرقابة ، لابطال مكائده ، فانزوى فى الظل لا قيمة له . واستعنت برجال من أكفأ الرجال وأعظمهم . ووهبت للناس عصرا ذهبيا من السلام والرخاء ، حتى آمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم ..

فقال أبنوم :

- فى عهدنا الذى دفتموه فى الظلام ، حكمت ملكتان عظيمتان .

وسألها الحكيم أمحتب :

- ولماذا لم تدعى عرشك بإشراك أخيك فى الحكم ؟ .

فقال حتشبسوت :

- لم يكن مثلى من سلالة الشمس . وكانت سابقته فى تدبير المكائيد لى ، أوجبت على الحذر منه . وقد أشاروا على باغتياله ، ولكنى كرهت الغدر وسفك الدماء .

فقال إيزيس :

- ابنة تفخر بها أى أم . وليست فى حاجة إلى دفاع .

وقال أوزوريس :

- إلى كرسيك بين الخالدين .

٧

ونادى حورس :

- الملك تحتمس الثالث .

ودخل رجل قصير القامة ، متين البنيان ، تنطق معالم وجهه بالجلال . فتقدم متلفعا بكفنه ، حتى مثل فى خشوع أمام العرش .

وقرأ نحت كاتب الآلهة :

- تولى العرش عقب وفاة حتشبسوت . فظهر الإدارة من خصومه ، وقبض على النظام بيد من حديد . أكرم كهنة آمون ، ووضعهم فى منزلة السيادة ، على غيرهم من الكهنة وأعد جيشا وأسطولا لم تعرف البلاد لهما نظيرا من قبل . وخاض غمار حروب عديدة ، تمخضت عن إنشاء أكبر امبراطورية شهدها العالم القديم حتى وقته ، وخضعت لسلطانها آسيا الصغرى وأعلى الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا ووحدات الصحراء وهضاب الصومال وشلالات النيل العليا . فاصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ، ومستودع الخيرات والسلع . وأقام المعابد والحصون والمسلات فى مصر وجميع البلاد التابعة لها . وترك وراءه وطنا يتربع فوق قمة العظمة والحضارة .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

- ذقت الظلم فى مطلع حياتى ، كما لم يذقه ملك . كنت أحق إخوتى بالعرش ،



لما أودعته في الآلهة من قوة ، ولما حصّلت من علوم الدنيا والدين . ولكنى حرمت من حق ، لسبب تافه ، هو أصل أُمى . وعشت في الظل كرجل لا وزن له . ولما قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة حتشبسوت ، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتي الشرعية . وكانت الامبراطورية حلمي الأكبر ، لا حباً في القتال أو طمعاً في الثراء ، ولكن دفعا لشعاع الحضارة المصرية ليعم نوره الأقوام الذين من حولنا ، ولكي يحتل آتون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة .

فقال أحمس (وكان قد جاء في دوره ، وحُكِم له بالدخول مع الخالدين) :
- أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعا . وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ، ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة .
وسأله أبنوم :

- ماذا قدّمت للفلاحين ؟ .

فأجاب تحتمس الثالث :

- كان منهم جنودى وضباطى وقوادى . وقد أصلحت وسائل الرى ، وأشبعنا احتياجاتهم ، فقتلت الفقر في ربوعهم ، وتحول منهم جمع غفير للعمل في المدن ، في شتى الصناعات والحرف والتجارة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

- لقد قامت امبراطوريتك على الآلاف المؤلفة من جماجم المصريين والأمم ! .
فقال تحتمس الثالث :

- الموت لا مفر منه . وأن يموت الإنسان وهو يبنى المجد ، خير من أن يهلك في وباء أو بسبب لدغة ثعبان . والحق أنني لم أكن جبارا ولا محبا لسفك الدماء . ورسمت خططى على أساس المفاجأة والانتقان ، لأحصل على أسرع نصر بأقل تكلفة من الأرواح . وعقب حصار مجدد ، وقع في يدي جميع أعدائى من الملوك والأمراء والجنود ، فتوسلوا إلى أن أهبهم الحياة . فرق قلبي لهم ووهبتهم الحياة ، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقوا العلم والحضارة ، وليتأهلوا لحكم بلادهم مكان الحكام المصريين ، وهى سياسة إنسانية حكيمة لم تعرف من قبل .

فقالت الملكة حتشبسوت :

– لولا الثراء الذى تركته لك ، ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك
العديدة على آسيا .
فقال تحتمس الثالث :
– حقا ، أورثنى ثراء فى المال ، ولكنك تركت الجيش فى حال تستحق الرثاء ،
وسرى الفساد بين رجالك المقربين ..
فقال تحتمس :
– مازلت حاقدا ، سيئ الظن ، فاسد الطوية ، ومازلت مصرا على اتهامى فى
شرفى دون دليل ..
فقال أوزوريس :
– حسبكما تبادل للكلمات الجارحة ..
وهنا سألته إيزيس :
– أكنت تحبها يابنى ؟ .
فقال تحتمس الثالث :
– كانت تسخر من قصر قامتى ، التى سجد أمامها ملوك جميع الأمم .
فقال إيزيس :
– هذا الابن العظيم ، جدير بأن تفخر به مصر على مدى التاريخ .
فقال أوزوريس :
– اذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

٨

ونادى حورس :
– الملك أمنحتب الثالث والملكة تى .
ودخل الزوجان الملكيان . وتقدما فى كفניהما ، حتى مثلا أمام العرش .
وقرأ تحوت كاتب الآلهة :
– دعيت الملكة تى مع الملك ، لمشاركتها له فى الحكم . وكان عهد هذا الملك

عهد رخاء وعز ، لم يسبق له مثيل ، استقبلت مصر فيه خيرات الأمم وأموالها . وسهر على امبراطوريته بيقظة وكفاءة . فأدب أى متمرد أيّا كان موقعه . واستمتع بالحياة كما لم يستمتع بها ملك من قبل . فشيد القصور والمعابد ، وعشق الطعام والشراب والنساء . وفى آخر أيامه تزوج من ابنة ملك ميثانى ، وكانت فى سن أحفاده ، فعجلت بوفاته .

ودعاه الملك للكلام ، فقال :

- ورثت عن جدى العظيم تحتمس الثالث ، امبراطوريته . فعقدت العزم على أن أراث عظمته أيضا . ولم يكن هناك مجال لتوسيع الامبراطورية . فقوّيت دعائمها ، وأدّبت متمردىها . ثم مارست العظمة فى البناء والتعمير ، وتوفير الرخاء الشعبى ، وتحديث التقاليد . فتزوجت فتاة من الشعب ، كانت خير شريك لى فى ملكى ، بما كانت عليه من فطنة وحكمة . وخلفت ورالى عهدا سيظل رمزا للسعادة والرخاء .
فقالَت الملكة حتشبسوت :

- سرتنى شهادتك للملكة ، واعترافك لها بالجدارة . فهى شهادة للمرأة ، وفيها ردّ بليغ على أعدائى .

فقال أمنتب الثالث :

- تى ملكة عظيمة .. بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء .

فقال أبنوم :

- ولكنك جازيتها أسوأ الجزاء ، بولعك النهم بالنساء ، وتعلقك الشديد بهن

فقال أمنتب الثالث :

- لكل ملك حريمه . وتلك الأهواء العابرة ، لا تنال من مكانة الملكة

العظيمة ..

- وتزوج فى شيخوختك بنتا فى سن حفيدتك ؟

فقال الملك :

- أردت أن أوثق علاقة مصر بميثانى .

فقال أوزوريس :

- لا يجوز الكذب فى هذه القاعة المقدسة .

فقال أُمْنَحْتَب الثالث بصوت المعتذر :

- الحق ، سمعت عن جلالها الفائق ، وكنت مجنوناً بالجمال . ورغم الشيخوخة والمرض ، أفرطت في الحب حتى قُضِيَ علىّ .

فسأله الحكيم بتاح حتب :

- أهذه قفة حكمة العمر ؟ .

فقال أُمْنَحْتَب الثالث :

- ميتة الحب أفضل من ميتة المرض .

* * *

ودعا أوزوريس الملكة تبي للكلام ، فقالت :

- اختارنى الملك زوجة عن حب . وانجذبت إليه مبهورة بالحب ، وبأبهة الملك . وربط الحب بيننا حتى آخر العمر . وقد استشارنى مرة فى بعض شئون الملك ، فأرضاه رأى غاية الرضى ، وقال لى « أنت ياتى امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبه » . ومن يومها ، لم يقرر أمراً حتى يستمع إلى رأى ، وجعلنا نستقبل الوزراء والمستولين معا ، وأشارك برأى فى المسائل المطروحة على بساط البحث . واعترف كل مسئول فى المملكة بقدرى وحكمتى . وجاء إلى الكهنة فى اضطراب ، إبان الأزمة الدينية التى استفحل أمرها ، بسبب دعوة ابنى اخناتون . وقد بذلت أقصى جهدى لتجنب الكارثة ، ومنع الحرب الأهلية . أما عن ولع زوجى بالنساء ، فقد كان لكل فرعون حريمه ، ولم تستأثر زوجة بملك . بل لم أجد بأساً فى انتقاء الجميلات له ، حتى تصفو نفسه ، وينهض بمسئوليته على خير وجه ، وقهرت بقوة إرادتى غير المرأة الطبيعية عندى ، وأقنعت نفسى بأن الملكة ليست امرأة عادية ، بل إنها مسئولة عن مزاج زوجها ، كما أنها مسئولة عن سياسته .

فسألته حتشبسوت :

- ألم تنهزم « الملكة » أمام « المرأة » .. ولو مرة ؟

فقلت تبي :

- لم أعرف الهزيمة إلا أمام ابنى ..

فقال الحكيم بتاح حتب :

- ولكن المرأة هي المرأة ..

فقالت تبي :

- ولكن تبي مثال وحدها ، وطراز .. لا يتكرر !

فقالت إيزيس :

- أثبتت هذه السيدة ، جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها . وكان زوجها ملكا عظيما . وهيئات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذة العيش . وقد تقلّب في النعيم بعد أن يسّر له عامة شعبه . فتقلب معه في النعيم . فليهنأ قلبي بهذا الابن وهذه الابنة .

فقال أوزوريس :

- إلى مجلسكما بين الخالدين .

٩

ونادى حورس :

- الملك اخناتون والملكة نفرتيتي .

فدخل رجل وسيم الوجه وامرأة جميلة . وتقدما في كفنيهما حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- ورثا العرش والحكم شريكين . فجرّ ثورة دينية ، فدعا إلى عبادة إله جديد واحد . وألغى الدين القديم وآلهته . وبشر بالحب والسلام والمساواة بين البشر . تعرضت البلاد في الداخل للانحلال والفساد ، كما تعرضت الاميراطورية للتمزق والضياع ، ومضت الأوضاع إلى حافة الحرب الأهلية . فسقط الملك . وقضت ثورة مضادة على ثورته . ومحا المؤرخون والملوك عهده من التاريخ ، واعتبروه شر عهد انقضى على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أخناتون :

- منذ الصغر ، وأنا مواظب على ملء روحى بالمعرفة والحكمة الإلهية ، حتى هبط على قلبي وحى من السماء يحمل نور الإله الواحد ، ويطالبني بالدعوة إلى عبادة هذا الإله الواحد . فكرّست حياتى لذلك . ثم لما وليت العرش كرسته لخدمة نفس الهدف . وسرعان ما قام صراع وحشى بين دعوى النورانية .. وبين ظلمات الجهل ، والتقاليد ، وأطماع الكهنة ، والحكام المتعطشين إلى الجاه وإلى استعباد الفلاحين ورعايا الامبراطورية . ولم يتسلل الضعف أبداً إلى جهادى الروحى ، ولم أرض باستعمال العنف أو القهر ضد من عادونى . وذقت النصر أعواماً ، فنشر الخير جناحيه . ولكن قوى المكائد والدسائس ، وزحفت جيوش الظلام حتى حاصرتنى من جميع الجهات ، فتهاويت وحلّت بى الهزيمة . ولكن ثقى فى النصر النهائى لم تترزع أبداً . فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتى ، ولا ابتلى بنهاية أتعس من نهايتى ..

وقالت الملكة نفرتيتى :

- صدق فيما قال يامولاي . لقد جاهدنا جهاد الأبطال ، حتى غلبتنا قوى الشر ، فهدم البنيان المرتفع ، وتساقطت أركانه .. وكان الوزير أمحتب ، أول المعلقين ، فقال :

لقد كنا نظن أن هناك قوة إلهية واحدة وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة . ولكننا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسدة لهذه القوة التى لا يرونها ، فيلتفون حول هذه الرموز فى كل إقليم ، يستمدون منها القوة والعزاء . فتركنا الأمور تجري على ما جرت عليه ، رحمة بالقلوب المؤمنة ، وحفظاً لها من الضياع .

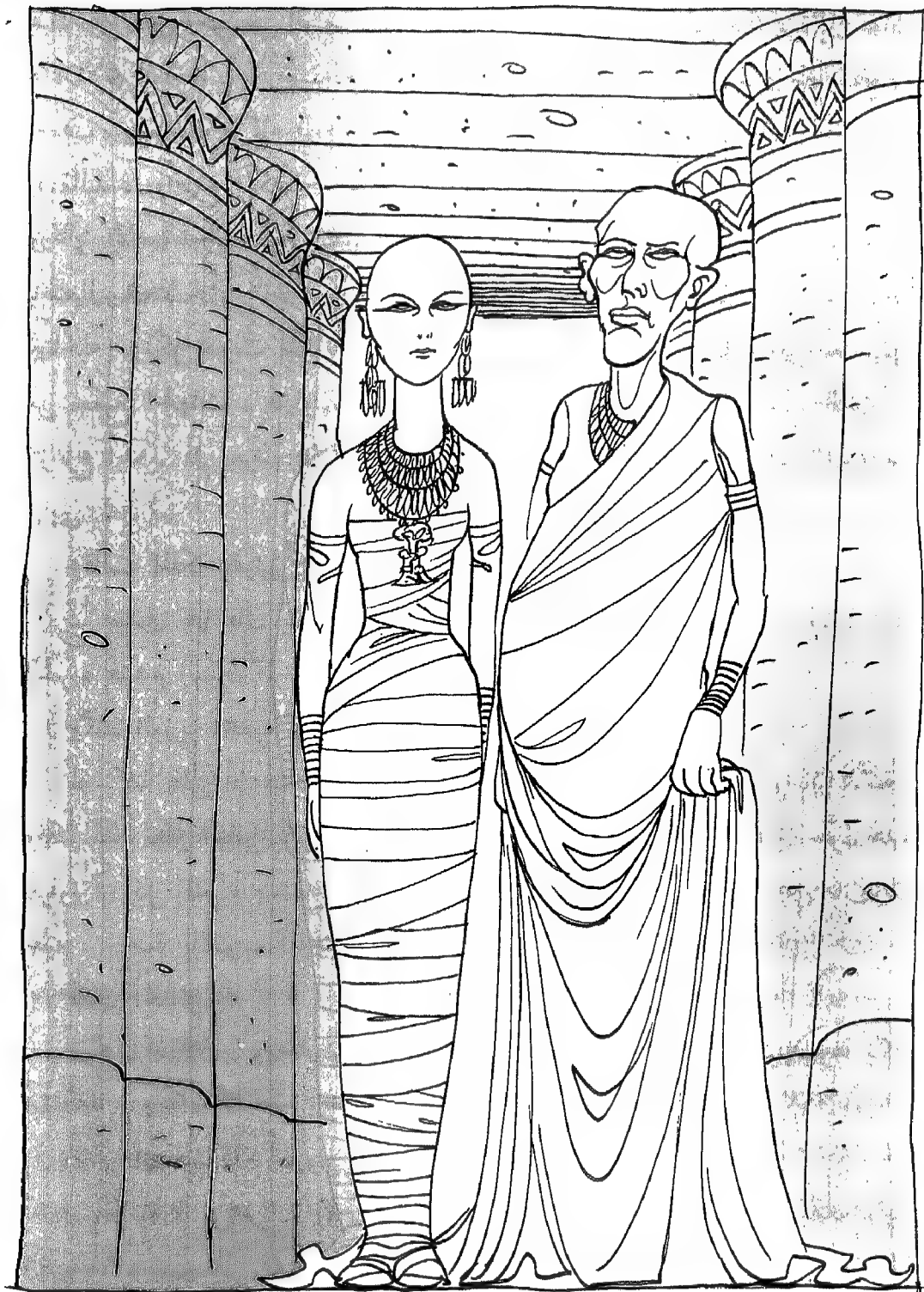
فقال أخناتون :

- هذا ضلال . ووجدت أنه آن للناس أن يعرفوا الحقيقة ، ويواجهوها بكل أبعادها .

فقال الحكيم بتاح حتب :

- معاملة الناس فن ، وفن صعب أيها الملك . ومن لا يحسنه ، فقد تخذله نواياه الطيبة ، وتودى إلى غير ما يقصد .. فيقتل من يحب وهو يسعى لانقاذه .

فقال أخناتون :



- لولا ذوو الأغراض الخاصة ، لصلحت الأمور .
فسأله أبنوم :
- وماذا فعلت بذوى الأغراض ؟
- عاهدت نفسى منذ البداية على التعامل بالحسنى ، وعدم الإيذاء والقهر .
فصاح أبنوم :
- ليس للاشرار إلا العصا والسيف :
- فقال اخناتون :
- آمنت بالحب أتعامل به مع العدو والصديق .
فقال أبنوم :
- لقد ضيَّعت رسالتك بسذاجتك . ورجل الخير ليس إلا مقاتلا .
فقال تحتمس الثالث :
- لقد تركت لك أعظم امبراطورية عرفها التاريخ . فكيف ضاعت في عهدك ،
وتحت إمرتك جيش لا مثيل لقوته ؟ .
فقال أخناتون :
- كان مبدئى الحب والسلام ..
- زدنى شرحا من فضلك .
- كنت أدعو لإله واحد لجميع البشر . كلهم يتساوون تحت مظلته . وكنت أدعو
إلى أن يحل الحب بين الناس محل السيف .
فقال تحتمس الثالث بغضب :
- طبعى أن تضيع الامبراطورية ، نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير . أنت لست
إلا مجنوناً ! .
فقال أوزوريس :
- لا أسمح بتجاوز حدود الأدب فى النقاش . اعتذر فقال تحتمس الثالث :
- معذرة . ولكنى أسجل أسفى على ضياع عمرى ههنا .
وقال الملك مينا :
- لقد قامت وحدة مصر على السيف وعلى تلّ من الجماجم . وعلى نفس الأساس

- كان يجب أن تقوم وحدة الامبراطورية .
فقال أخناتون :
- لا جدوى من مناقشتكم . فالمسألة بكل بساطة أننى سمعت صوت الإله . أما أنتم فلم تحل بكم هذه النعمة الإلهية .
وقالت الملكة نفرتي :
- كم كانت تطاردنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء . وقد حطمتنا الدنيا بجبروتها . ولكننا نقف اليوم بين يدي إله عادل .
- وعندئذ سألتها الملكة حتشبسوت :
- إذن ، لماذا هجرت زوجك فى قمة الأزمة ؟
فأجابت نفرتي :
- لم يداخلنى أبدا شك فيه . ولكننى توهمت أننى بهجره ، قد أنقذه من القتل .
وهنا قالت إيزيس :
- هذا الابن ، آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر . ولكن لم يكن أحد مستعدا لفهمه أو التفاهم معه . فكانت المأساة . وسوف أظل فخورة به إلى الأبد .
وقال أوزوريس :
- اجلس أنت وزوجتك بين الخالدين .

١٠

- ونادى حورس :
- الملك حورمحب .
فدخل رجل متوسط القامة ، متين البنيان ، صلب الملامح . وسار متلفعا فى كفنه ، حتى مثل أمام العرش .
وقرأ نحت كاتب الآلهة :
- ولى العرش ، رغم عدم انتائه إلى الأسرة المالكة . وتزوج من موت نجمت لكى يضفى الشرعية على ولايته ، بالرغم من تقدمها فى السن . وانبرى بقوة للقضاء

على الفوضى والفساد والتسيب ، وإصلاح ما تخرب من معابد على عهد أخناتون . وبفضله استتب الأمن والنظام فى داخل البلاد ، أما الامبراطورية فقد أصبحت فى خبر كان .. باستثناء القليل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

– حقا ، لم أكن من الأسرة المالكة ، ولكنى أنتمى إلى أسرة عريقة من أسر الشمال . وقد نشأت نشأة عسكرية ، وأديت خدمات ناجحة فى عهد الملك أمنتب الثالث . ولما ولى أخناتون العرش ، قربنى إليه ، ومنحنى الثقة ، ولكنه للأسف ، لم يأخذ برأى فى وجوب معاقبة المفسدين فى الداخل ، وإرسال حملات لتأديب المتمردين فى أنحاء الامبراطورية . ولما بلغت الأزمة أشدها ، ولاحت فى الأفق نذر الحرب الأهلية ، تفاهت مع كهنة آمون على التصفية النهائية لحكم أخناتون ، مفضلا المصلحة العامة على عواطفى الشخصية . واتفق رأى الجميع على جدارنى بالعرش لمواجهة الفوضى الضاربة فى أنحاء البلاد . ولكن رُئى أن يُحترم القانون أولا . فتولى الملوك الثلاثة ، ساكرع وتوت عنخ آمون وآى . حكم الأول أربعة أعوام ، والثانى ستة أعوام ، والثالث أربعة أعوام . وعجزوا جميعا عن مواجهة الأزمة . واستمر الاضطراب والفساد فى عصورهم . وعقب وفاة آى ، قامت ثورة ونهبت المقابر . فلم أجد مفرا من تحمل المسئولية . وقد تزوجت من موت نجمت أخت نفرتيتى ، لأنها كانت من أوائل الذين كفروا بأخناتون ، وانضمت إلى الكهنة لانقاذ البلاد .

ووجدت المهمة أمامى ثقيلة ومتشعبة . ولكن لم أكن أفقد القوة أو العزيمة . فأخمدت الثورة ، ونظمت الجيش والشرطة والإدارة ، وراقبت الموظفين ، ولم أرحم منحرفا . ثم جددت المعابد ونظمت الأوقاف . وحملت الضعفاء من الأقوياء . ولو امتد لى العمر أكثر مما امتد ، لاسترددت ما ضاع من امبراطورية العظيم تحتمس الثالث .

وتكلم الملك خوفو ، فقال :

– قمت بعمل مجيد أيها الملك .

فقال أبنوم :

– عمل مجيد حقا . ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب ، بما أنك من سلالة أسرة عريقة . وترجمتها الأمنية عندى ، أسرة عريقة فى النهب والسلب . فقال أوزوريس :

– لا أوافق على هذا الأسلوب فى النقاش . اعتذر . فقال أبنوم متجها :

– معذرة . وقال تحتمس الثالث بأسف :

– كنت جديرا بإرجاع الامبراطورية إلى مجدها الأول . فقال حورمحب :

– كانت البلاد ممزقة ، وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال . وتكلم أخناتون فقال :

– لم أحب أحدا من أتباعى كما أحببتك يا حورمحب ، ولم أكرم أحدا منهم كما أكرمتك . وكان جزائى أن خنتنى ، وانضمت إلى أعداء الشعب وأعدائى . ثم هدمت مدينتى ومعبدى ، ومحوت اسمى ، وصبيت على اللعنات .. فقال حورمحب :

– لا أنكر شيئا من جميع ما قلت . وقد أحببتك أكثر من أى رجل عرفته ، ولكننى أحببت مصر أكثر .

– وشاركت فى محو عبادة الواحد الأحد ، وإرجاع الآلهة الزائفة إلى عروشها .. فقال حورمحب :

– لم يكن ، فى مقدرتى ، تجاهل ما تنبض به قلوب الملايين . وهنا قالت له نفرتيتى :

– كنت تحببى يا حورمحب . فلما تزوجت من أخناتون ، أضمرت له الحقد . فقال حورمحب :

– أقول لك أيتها الملكة ، فى هذه القاعة التى لا يجوز فيها الكذب .. لم تشغل المرأة أبدا من قلبى إلا أتفه جزء فيه . معركتى معكم كانت معركة وطنية ، لا معركة غرامية !

وهنا قالت إيزيس :
 - ابني هذا ، أقوى من أن يحتاج إلى دفاع .
 فقال أوزوريس :
 - إلى مجلسك بين الخالدين .

١١

ونادى حورس :
 - الملك رمسيس الثانى .
 فدخل رجل طويل القامة ، رشيق القدر تقدم فى كفنه حتى مثل أمام العرش .
 وقرأ تحوت كاتب الآلهة :
 - تولى الملك عقب وفاة أبيه . وطّد نفوذ مصر فى النوبة وآسيا . حارب الحيثيين
 ثم عقد معهم معاهدة سلام . ثم كرّس حياته المديدة للبناء بصورة لم تعرفها البلاد
 من قبل . وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفن والأدب والرخاء . وقد طال عمره
 حتى قارب المائة . واستمتع بالحياة طولا وعرضا . وأنجب من الأبناء ما يقارب
 الثلاثمائة .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :
 - الحق ، أننى اغتصبت العرش من أخى ولّى العهد . لاعتقادى بأن الوقت
 يتطلب ما أوتيته من قوة ، وأن ضعف أخى سيكون كارثة على البلاد لو ولى العرش .
 وكنت طموحا مقداما . فصممت على أن أوفر لوطنى فى الداخل أقصى درجات
 الأمان والنظام والعدل والرفاهية ، وأن أرجع الامبراطورية لسابق عهدى المجيد .
 فوطدت نفوذى فى الجنوب ، ثم تقدمت إلى فلسطين وسوريا ولبنان ، وأسرع إلى
 الحكام والأمراء يقدمون فروض الطاعة . ثم توجهت بجيوشى إلى قادش ، لأنزل
 الضريرة القاضية بعدوى القوى ، ملك الحيثيين . وأوقعنى سوء الحظ فيما يشبه
 الحصار . فأحاط بى العدو ، وبقية جيوشى بعيدة عنى . وثار بى الغضب ، وخفت
 على كرامة مصر التى باتت أمانة بين يديّ ، وصليت إلى إلهى طويلا . ثم هجمت

على العدو ، وحولى شزيمة من الحرس ، وانقضضت على جموعه كالصاعقة ، فتزلزلت قلوبهم ، وتوالت مصارعهم تحت ضرباتى ، فشقت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيشى . ثم كررنا عليهم ، فسحقناهم سحقا حتى رموا بأنفسهم فى مياه النهر . وتم لنا النصر . وحاصرت قادش . فاقترح ملكها معاهدة صلح وسلام ، لم أجد بأسا بها ، خاصة بعد أن استرددت الامبراطورية عدا أجزاء لا يعتد بها . ثم رأيت أن أكرس حياتى للبناء . فتزوجت من ابنة ملك الحيثيين دعما للسلام . ورفعت من الأبنية ما لم يرفعه فرعون قبلى . وهيات من السعادة لأهل مصر ، ما لم يعهدوه من قبل ، ولا أحسب أنهم عرفوه من بعد .

وكان أول المتكلمين سيقى الأول (سبق أن جاء فى دوره ، وحُكِم له بأخذ مجلسه مع الخالدين) فقال :

– ولكنك بدأت حياتك باغتصاب حق أخيك ولى العهد الشرعى .

فقال رمسيس الثانى :

– لا أحترم قانونا يورث عرشا لعاجز لا يستحقه .

فسأله تحتّمس الثالث :

– كيف يرضى قائد مظفر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوه ، ثم يتزوج من ابنته ؟ .

– هو الذى طلبها .. ووجدتها مفيدة للطرفين .

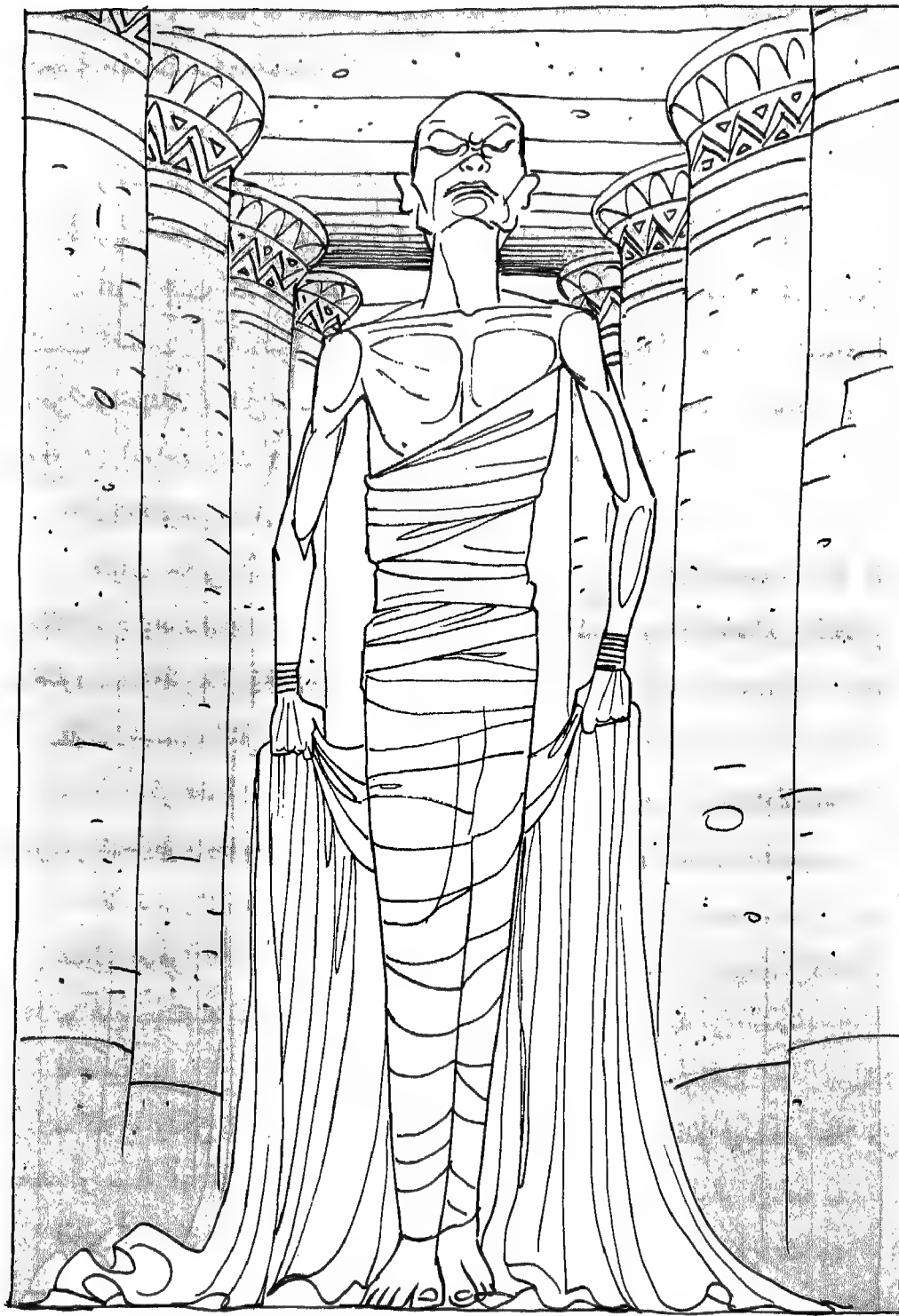
– كيف وقعت فى الحصار أيها الملك ؟

– وقع فى يدنا جاسوسان للعدو ، اعترفا كذبا بأن العدو مرابط شمال قادش . فأسرعت بالفرقة الأولى لأحتل جنوب قادش ، ولكن العدو كان كامنا فى الشرق ، فاخترق مؤخرة الجيش وضرب حصاره

– لقد تسرعت ، وكان يجب انتظار جيشك القادم من الجنوب . أنت شجاع ما فى ذلك شك ، ولكنك قائد غير محنك .

– لقد حطمت الحصار ، ثم كررت على العدو ببقية جيشى ، فوقع فى المصيدة التى نصبتها لى ، فزقته شرمزق ، وأحرزت نصرا حاسما .

فقال تحتّمس الثالث مواصلا مناقشته :



– لم يكن هدفك كسب معركة . ولكن واضح أنك أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا ، باعتبارها مفتاحا لجميع الطرق . فلا حق لك في ادعاء النصر إلا بتحقيق الهدف من الحملة .

فسأله رمسيس الثانى :

– وماذا تقول في قضائى على جيش العدو ؟

فأجاب تحتمس الثالث :

– أقول إنك كسبت معركة ولكنك خسرت الحرب . وعدوك خسر معركة وكسب الحرب . واستدرجك إلى السلام ، لينظّم صفوفه ، ورحب بمصاهرتك ليأمن مواجهتك ، قبل أن يعرض خسائره . وقنع بالاحتفاظ بقادش ليهدد بها أى موقع في امبراطوريتك في المستقبل .

فقال رمسيس الثانى :

– طوال حكمى الطويل ، لم يخل الأمن ساعة واحدة في الداخل ، ولم تقم معركة تمرد واحدة في الامبراطورية المتراصة ، أو يفكر عدو في اختلاس النظر إلى الحدود .

فقال تحتمس الثالث :

– لا أنكر فضلك . لقد أعدت إلى مصر الجزء الأكبر من امبراطوريتها . كما تميزت بشجاعة شخصية فائقة ، كانت قديرة على إلقاء الرعب في القلوب .

– ولا تنس أن عصرى كان عصر التعمير الأعظم .

فسأله خوفو :

– هل بنيت هرما ؟

فأجاب :

– كلا ، ولكن ليس بالهرم وحده يعمر الإنسان . وما من إقليم في مصر خلا من معبد أو مسلة أو تمثال لى .

فقال أخناتون :

– استوليت على أعمدة معبدى المهدم ، وشيدت بها معبدك الجنائزى . وتكرّر سطوك على آثار السابقين . كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حق . وقلّلت من

شأن كل عظيم سبقك ، كأن الآلهة لم تخلق سواك .

فقال رمسيس الثانى :

- فى هذه القاعة المقدسة ، لا أنكر خطأ ولا أدافع عن نزوة . ولكن دع غيرك يوجه إلى الاتهام ، ويكون مبرءا من الكفر .

فقال أوزوريس :

- لا تنس أيها الملك أنك تخاطب رجلا تمت محاكمته ، واستحق الخلود .
اعتذر .

فتمم رمسيس الثانى بهدوء :

- معذرة .

وعند ذلك ، سأله الملكة حتشبسوت :

- وما قصتك مع النساء ؟ وهل وجدت وقتا لملاطفة أبنائك الثلاثمائة ؟

فقال رمسيس الثانى :

- لم يتمتع أحد بالسعادة كما تمتعت . وهبتهى الآلهة عمرا مديدا ، وصحة كاملة ، وقدرة بلا حدود على الحب . ولم تضعف قوتي حتى آخر العمر ، رغم ما خصصت به زوجتى الملكة نفرتارى من احترام ومودة . أما أبنائى فما عرفت إلا أقلهم !
فقال ابنوم :

- حياتك أيها الملك جامعة بين الجدية بكل معانيها ، وبين العبث بكل نزواته .

فلعل الحكم عليك يجمع بين الانصاف والردع !

فنظر أوزوريس نحو ابنوم وقال :

- المحكمة فى غنى عن إرشادك . وأراك تحن إلى إشعال ثورة جديدة فى عالم

الخلود . فلا تتجاوز حدودك واعتذر .

فقال ابنوم :

- معذرة ياسيدى العظيم .

وقالت إيزيس قاصدة رمسيس الثانى :

- أعاد هذا الابن مصر إلى سابق مجدها . وعم الرخاء فى عهده الجميع :

القصور والبيوت والأكواخ . وإذا قسنا هفواته بطول عمره ، ظهرت تافهة .

وقال أوزوريس :

- اذهب إلى كرسيك بين الخالدين .

١٢

ونادى حورس :

- الملك امنمس والملك سبتاح والملك سیتی .

فدخل الثلاثة . وتقدموا في أكفانهم حتى مثلوا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- شغلوا بمنازعاتهم على العرش . فساد الفساد والانتهازية .

وتمزقت وحدة البلاد . وانتشر القتل والسلب والنهب .

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال امنمس :

- كنت الأحق بالعرش . ولكنه أغتصب مني . وشُغلت عن واجبات الحكم

بمطاردة الدسائس ، حتى اضطرت للتخلي عن العرش .

وقال سیتی :

- كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أحكم حكما طيبا . ولكن الفساد كان

قد استشرى فاجتاحنا الانحلال .

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر :

- ما أسرع أن يحل الفساد محل المجد ، وأن ينعكس ضعف حاكم واحد على

حضارة متكاملة .

فقال تحتمس الثالث :

- لعل المشكلة تلخص في كيف تعثر على الرجل القوى المناسب في الوقت

المناسب .

فقال حور محب :

- لم يكن في الأسرة المالكة رجل قوى كفاء ، ولكن هل خلت البلاد من ذلك

الرجل ؟

فقلت إيزيس :

- قضى القانون ، بأن يرشَّح الموجود . والبحث عن المطلوب يتطلب قدرة وعناء . ولم يكن فى وسع هؤلاء أن يفعلوا خيرا مما فعلوا .
فقال أوزوريس :
- اذهبوا إلى مقام التافهين .

١٣

ونادى حورس :

- الملك رمسيس الثالث .
فدخل رجل طويل القامة يبدو عملاقا . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .
وقرأ تحوت كاتب الآلهة :
- انتصر على الأعداء فى آسيا والغرب والوافدين من البحر ، ونشر الأمن والأمان فى البلاد .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- نتيجة للمعاناة فى الداخل ، تمرد الأمراء فى آسيا ، وطمع الليبيون فى الغزو ، ثم دهمنا من بحر الشمال أقوام بسائهم وأطفالهم يريدون الاستيطان . وفى الحال نهضت للقتال دون هواة . فطردت الليبيين ، وقضيت على الشماليين وأسرت نساءهم وأطفالهم . ثم قادت حملة إلى آسيا ، ففتكت بالعصاة دون رحمة . وحظيت البلاد فى عهدى بالأمان والاستقرار . فشيدت العديد من القصور والمعابد . ومن سوء الحظ ، أننى تعرضت فى شيخونحتى إلى مؤامرة فى الحرم لاغتصاب العرش . ونجوت من الموت بأعجوبة . ثم شكلت محكمة عليا لمحاكمة المذنبين . وأمرت بالعدل ، بحيث لا ينجو مجرم ، ولا يؤخذ برىء . ومن المؤسف أن قاضيين سقطا ، باغراء بعض نساء الحرم ، ولما انكشف أمرهما انتحرا .

فقال تحتمس الثالث :

- مواقعك تشهد لك بأنك من القواد الأفذاذ . .

فقال رمسيس الثالث :

- لقد ترسمت خطاك فى غزوى الآسيوية .

فقال أخناتون :

- إن معاملتك للمتآمرين عليك ، وتقديمهم للمحكمة بدلا من أن تبطش بهم ،
وطلبك من المحكمة تحرى العدل وحده .. كل ذلك يقطع بتقديسك للقانون ،
وشغفك بمكارم الأخلاق ، كأنما كنت من عباد الإله الواحد .

فقال رمسيس الثالث :

- كنت من عباد مكارم الأخلاق .

فقال بتاح حتب :

- إنه كيد النساء ، كاد يفتك بملك عظيم ، وأهلك قاضيين ..

فقالت الملكة نفرتيتى :

- لقد خلق الإله الواحد النساء ، ليكشفن معادن الرجال .. الثمين منها

والخسيس !

فقالت إيزيس :

- نحية لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبيل .

فقال أوزوريس :

- إذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

١٤

ونادى حورس :

- الملك أمازيس .

فدخل رجل طويل نحيل ، مضى فى طريقه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة .

- وطّد النظام فى الداخل ، وغالى فى اعتماده على اليونانيين ، وشغف بالولائم
والعريضة . وفى عهده ظهرت دولة الفرس ، فسعى إلى إقامة حلف من مصر

وبابل^(١) واليونان لصدها ، ولكنها اجتاحت بابل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- اعتبرت الملك إيريس^(٢) مستولاً عن هزيمته أمام بابل ، وقدرت أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد ، فخرجت عن طاعته ، واستوليت على العرش . وقد أقت حلفاً لصد الفرس ، ولكن الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه ، فتفرغت للإصلاح في الداخل .

فسأله الملكة حتشبسوت :

- ماذا فعلت للداخل ؟

فأجاب أمازيس :

- عم البلاد رخاء ملحوظ . وأصلحت القانون المدني . وحسبي أن أذكر المادة التي ألزمت كل غني أن يبين لرئيس مدينته مصادر ثروته . فسأله تحتمس الثالث :

- ماذا فعلت لاعداد قومك لمواجهة الطامعين الجدد ؟

- لم يعد قومي يبالون إلا بالفلاحة وحياتهم الخاصة .

فقال له رمسيس الثاني :

- وكنت قدوتهم في ذلك ، بشغفك بالولائم والعريضة . ولست ضد الولائم والعريضة إذا كانت في إطار العظمة ! فقالت إيريس :

- إصلاحاته لا يستهان بها . وكانت له خطة حكيمة لولا الفشل .

وتفكر أوزوريس قليلاً ، ثم قال :

- تمكث في مقام التافهين ألف سنة ، ثم تنتقل إلى الجنة في درجة متواضعة تناسبك .

(١) مدينة ذات حصار قديمة تقع على سهر الفرات بالعراق .

(٢) الملك أبريس سبق الملك أماريس و المحاكمة . فحكم عليه بالمقام بين التافهين

ونادى حورس :

- بسماتيك الثالث .

فدخل رجل متوسط القامة ، قوى البنية - سار فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- حكم ثلاثة أشهر ، ثم تصدى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قبيز ملك

الفرس ، وانهزم جيشه ، ووقع فى الأسر ، وقتله قبيز ، واستولى على مصر .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- توليت العرش ، والجيوش الفارسية تتوغل فى آسيا ، وتتجه نحو مصر .

فاستعددت بقواى اليونانية ، وجئدت ، على عجل ، جيشاً صغيراً من المصريين .

ولاقيت العدو فى معركة حامية .

فدارت الدائرة علينا ، ووقعت فى الأسر . وقد أراد قبيز أن أتولى العرش بوصفى

تابعاً له . ولكنى رفضت ، وعملت فى الخفاء على مقاومة الغزاة . فأنكشف أمرى ،

ودفعت حياتى ثمناً لذلك .

وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :

- حدثنى عن مقاومة كل من اليونانيين والمصريين فى المعركة .

فقال بسماتيك الثالث :

- لاشك ، كانت مقاومة المصريين أشد بدرجة لا تقاس .

فقال تحتمس الثالث :

- توقعت أن أسمع ذلك . وربما لو كان جيشك كله مصرياً ، لتغير مصير

المعركة - ولكنكم أهملتم شعبكم ، واعتمدتم كل الاعتماد على الأجانب ، بعد أن

بدأ أسلافك فى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الأجانب . وبذلك انتهى تاريخ مصر

المستقلة على يديكم .

فقال سيكنزع (وكان قد جاء فى دوره من قبل ، وحكم له بالجلوس مع

الخالدين) :

- لا يجوز أن ننسى أنه رفض العرش في ظل الحكم الأجنبي . وضحي بنفسه في سبيل ذلك - وشاركني نفس المصير .
 فقالت إيزيس :
 - أمامكم ابن سيئ الحظ ، حارب بشجاعة ؛ ولو كان هدفه أن يحكم بأى ثمن ، لظل في الحكم ، ولكنه قتل عزيزاً شريفاً .
 وقال أوزوريس :
 - خذ مجلسك بين الخالدين .

١٦

وقال أوزوريس :
 - أيها السادة ..
 لقد انتهت مصر الفرعونية .. فانتهى اختصاص هذه المحكمة المقدسة .
 فليس من اختصاصها محاكمة الحكام الأجانب ، الذين حكموا مصر بعد ذلك . وهى تعتبرهم جميعاً ملعونين ، وإن اختلفت درجة اللعنة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد .
 ولكنها ستواصل محاسبة المصريين ، الذين كان لهم دور في تاريخ مصر بعد ذلك . ونقصد بالمصريين ، من كانت مصريتهم بالوراثة ، ومن اكتسبوها بالإقامة والقلب والروح .
 ولأن المصريين دخلوا في دين جديد ، فاعتنقوا المسيحية ثم الإسلام .. فسيكون حكمنا - بالنسبة لمن نحاسبهم - حكماً غير نهائى . بل سيكون نوعاً من التقدير التاريخى ، نرجو أن يوضع في الاعتبار عند حسابهم في الآخرة حسب دينهم .
 والآن أترك الكلمة لتحوت كاتب الآلهة .
 فقرأ تحوت كاتب الآلهة :
 * انتهت مصر الآلهة ، والأهرامات ، والمعابد ، والضماير المنيرة .
 * وأصبح الفرس ملوكاً على العرش الذهبى . ولكنهم عبدوا آلهتنا ، وتمسحوا

بتقاليدنا ، ورغم ذلك فإن المصريين مقتوهم مقتًا ، ثاروا وتحرروا ، وهُزموا واستُعبدوا .

* وجاءنا الاسكندر الأكبر غازيًا ومحرمًا من استعباد الفرس .
 * ثم ورث مصر أحد قواده ، بطليموس . فأنشأ لأسرته البطلمة دولة وحضارة .
 واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهري . بينما عاش المصريون في الظل ، يفلحون الأرض ، ويقنعون بالدرجة الدنيا ، باستثناء الكهنة ، الذين بقيت لهم الشئون الدينية .

وقد انفجرت حركات مقاومة في صورة هجرات جماعية أو إضرابات .
 وكانت تقابل بالعنف والشدة .
 فقامت ثورات ، ولكنها أخمدت بقسوة ، وأريق دماء غزيرة .
 * وانتهى حكم أسرة البطلمة في عهد الملكة كليوباترة التي ولدت في الاسكندرية ونشأت بها .

* ودخلت مصر تحت حكم أجنبي جديد ، هو الحكم الروماني .
 فاعتُبرت «مزرعة» لامداد روما بالغلال .
 وازداد وضع المصريين سوءًا . وكلما ثاروا ، أخمدت ثورتهم . وسفكت دماؤهم .

* وفي عهد الحاكم الروماني نيرون ، تسربت المسيحية إلى مصر . فأقبل فريق من المصريين يغيرون دينهم إليها - وغلب الزهد على معتنقي الدين الجديد . فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فرارًا من ظلم الحكام وفساد الدنيا .
 وقد قاومت الحكومة الرومانية الدين الجديد ، وانهالت بحراها على معتنقيه ، حتى عرف عصر الامبراطور دقلديانوس بعصر الشهداء .

وفي عصر تيودوسيوس ، حتم الامبراطور اعتناق المسيحية على رعاياه . فكان للديانة المصرية القديمة شهداؤها كذلك . ولكن أغلبية المصريين اعتنقت المسيحية .
 إلا أنهم استقلوا فيها بمذهب خاص بهم .

وامتزجت الروح الدينية بالروح الوطنية ، وعملا معًا على الثورة على حكم الرومان ، والاستقلال عنهم . فتعرضوا للمذابح وعذابات لا حصر لها . واتخذ الصراع

صورة معركة دينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الدولة الرومانية . واستمر النزاع مصحوبًا بأشد أنواع الاضطهاد من الرومان للمصريين !

* * *

وصاحب كلام تحوت ، صمت ثقيل .. وظل بعده لفترة .. إلى أن أشار أوزوريس إلى حورس ، فصاح حورس :

- المقوقس حاكم مصر .

فدخل رجل بدين ، مائل إلى القصر ، ومضى متلفعًا في كفه حتى وقف أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- حاكم مصر باسم الإمبراطور الروماني . اعتبره الأقباط مصريًا . وفي عهده فتح العرب مصر . وقد اتفق مع العرب ليتخلص من الرومان . وبذلك دخلت مصر في عهد جديد تحت حكم العرب .

فدعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- ولأني الإمبراطور الروماني حكم مصر . ورغم أصلي اليوناني ، فقد اعتنقت المذهب اليعقوبي المصري . فرضي عنى الأقباط ، واعتبروني واحدًا منهم . وقد رأيت الاتفاق مع العرب ، تخلصًا من الرومان . وحصلت بذلك على شروط حسنة .

فسأله أبنوم :

- كيف أمّنت للاتفاق مع الغزاة ؟

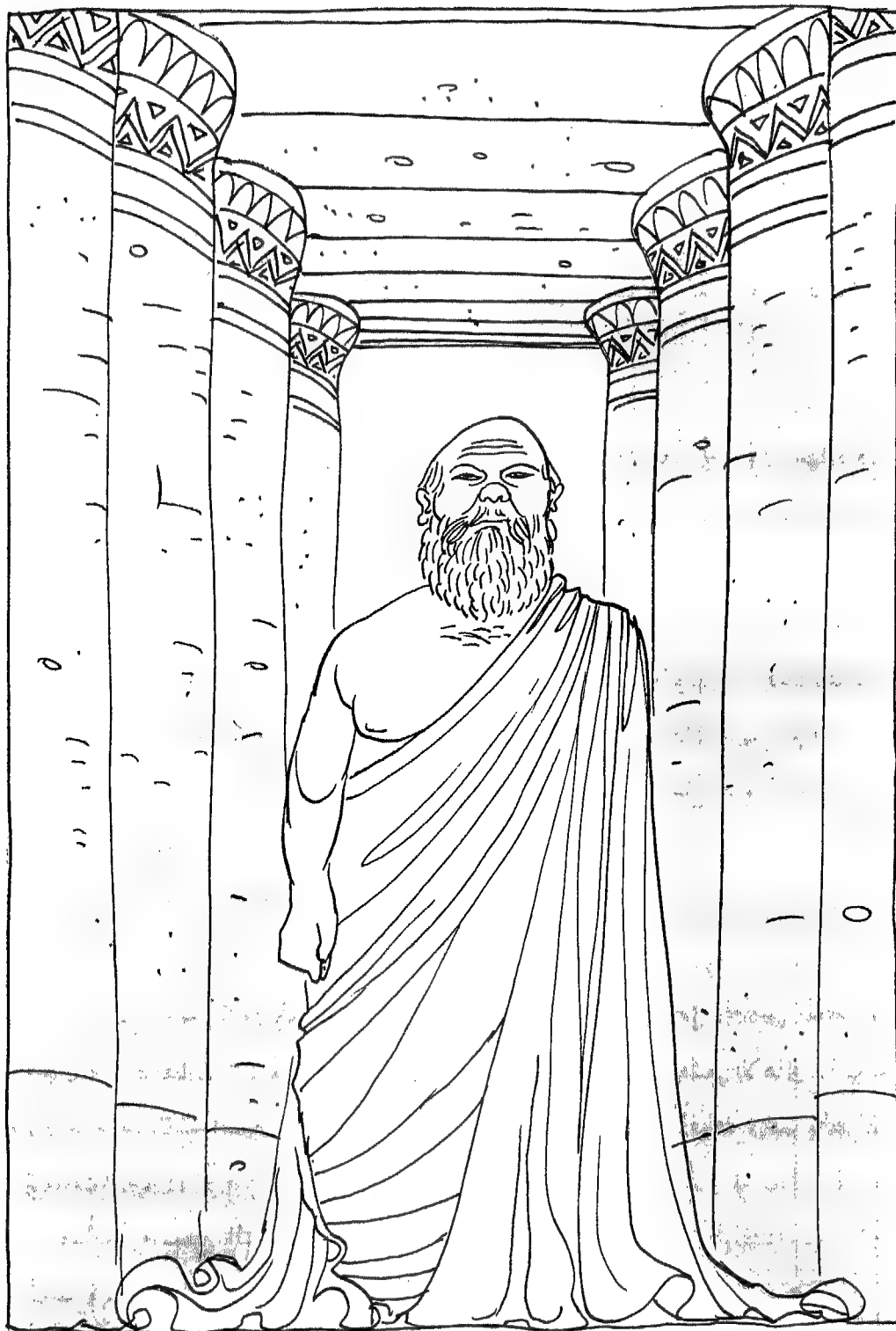
فأجاب المقوقس :

- أشهد أنهم كانوا غزاة شرفاء . وقد قسّم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى «أعمال» «محافظات» ، وضع على رأس كل منها حاكمًا قبليًا . فشر الأهل براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين . وحرّر العباد من كل قيد ، فعبد الأقباط ربهم بالطريقة التي آمنوا بها ..

فسأله رمسيس الثاني :

- ولمّ جشّموا أنفسهم مشقة الغزو إذن ؟

فقال المقوقس :



- كان هدفهم الأساسي ، فيما بدا لنا ، الدعوة إلى دين جديد بشروا به ، يدعى الإسلام .
- فقال أبنوم :
- واستقبلت مصر عهد شهداء من جديد ؟
- فقال المقوقس :
- أبدأ .. لقد كانوا يدعون إلى دينهم بغير إكراه .. ومن يشأ الثبات على دينه ، يدفع الجزية .
- فسأله خوفو :
- وما وجه الخلاف بين هذا الدين ، وديننا القديم ؟
- كانوا يؤكدون على وحدانية الإله .
- فصاح اخناتون :
- هذا ديني وهذا إلهي .. طالما آمنت بأنني سأنتصر في النهاية .
- فقال أبنوم :
- حدثني عما أفاده الفلاحون الكادحون ؟
- لقد ألغى عمرو بن العاص كثيراً من الضرائب التعسفية . فتحسنت أحوال الفقراء .
- فقال إيزيس :
- عادت سياسة هذا الرجل على أبنائي بخير غير منكور .
- فقال أوزوريس :
- يمنح شهادة تزكية ، لعلها تنفعه في حسابه في الآخرة .

١٧

- ونادى حورس :
- البطريك بنيامين .
- ودخل رجل نحيل متوسط القامة . وتقدّم حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

- بطريك الأقباط . حملته الاضطهاد الرومانى على الانعزال فى الصحراء . أفرج عنه عمرو بن العاص ، بعد أن طرد الرومان من مصر ، وأعلن حرية العبادة فيها . ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- العقيدة هى شرف الإنسان ، وهى كرامته وعزته ، وهى طريقه إلى الله . وقد تحملت ما تحملت من اضطهاد الرومان ، فلم أترزع عن عقيدتى . ثم آويت إلى الدير ، محتجاً على السقوط البشرى فى هاوية الظلم والفساد . وقضى الله أن تقع مصر فى أيدي بنى إسماعيل ، العرب المسلمين . فهبأوا للناس حرية العبادة . فرجعت مطمئناً إلى كرسى البابوية بالإسكندرية ، ومارست الزعامة الروحية للأقباط .

فقال تَحْتَمَس الثالث :

- أصبح غاية ما يرتجيه المصرى ، أن يفوز بغاز أجنبي عادل .

فقال البطريك بنيامين :

- لقد مضى على شعبنا زهاء ألف عام ، وهو قابع فى قراه ، وخاضع لأسرات أجنبية تحكمه بقوة السلاح ، فسأله أبنوم :

- ألم تستغل سلطتك الروحية لايقاظ الشعب ؟

فقال البطريك :

- لماذا ؟ وقد أتاح لنا هذا الحاكم الجديد حرية العقيدة ، وخفف الأعباء عن الفقراء ، ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه ؟

فقال إيزيس :

- لا لوم على الرجل

فقال أوزوريس :

- ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه .

ونادى حورس :

– الحاج أحمد المنيأوى .

فدخل رجل طويل القامة ، قوى البنيان . وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

– فى الأصل من أسرة ميخائيل المنيأوى . 'هدانى الله إلى الإسلام ، فأسلمت .

وتعلمت اللغة العربية . وحفظت القرآن الكريم . واشتغلت بالتدريس . ثم مكنتى الله

من أداء فريضة الحج .

وفى أيامى ، تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وكان من الخلفاء الراشدين ،

حيث كان مثل خلفاء المسلمين الأوائل ، شكاً إليه الأقباط أسامة بن يزيد ، فأمر

بعزله ، ثم قبض عليه ، وسبق إلى الخليفة «مكبلًا» .. فمات فى الطريق . وتولى

مكانه أيوب بن شرحبيل ، وكان ورعاً ، فعوض الأقباط عما وقع بهم من ظلم .

وسأله اخناتون .

– لماذا اعتنقت الإسلام ؟

– الإيمان ينفجر فى القلب دون مقدمات .

فقال أخناتون :

– صدقت ، ولن يصدقك مثل خبير . ولكن ألم تكن لأناشيدى دخل فى

ذلك ؟

فقال أوزوريس :

– إسمك لم يُعرف إلا بعد أيامه بألف عام .

فقال الملك خوفو مخاطباً أحمد :

– لعلك أسلمت لتتخلص من دفع الجزية .

فقال أحمد :

– أبداً .. بل هو الدين الجديد آمناً به دون إكراه .. والجزية لم تكن هى

السبب . وقد كانت خفيفة بل حدث أن قائد الجيش حيان بن شريح ظل يطلب

الجزية من الذين دخلوا في الإسلام . ولما بلغ الخليفة ذلك ، أمره برفعها ، كما أمر بضربه عشرين سوطاً ، وقال له : إن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جانياً [أى جامعاً لجزية] .

فقال أوزوريس :

– ليصحبك التوفيق أمام محمكتك الإسلامية .

١٩

ونادى حوس :

– موسى كاتب سر أحمد بن طولون .

فدخل رجل مديد القامة ، مضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

– قبضى مسيحي . وهبني الرب علماً ودراية . فاختراني الوالى أحمد بن طولون كاتباً لسره . ولم يكن عربياً . وقد آلت إليه الأمور في مصر في عهد الخليفة المعتمد بن المتوكل . فعمل على تثبيت ولايته . وكان مصر قد عاد إليها استقلالها . بل إنه ضم لحكمه سوريا وأجزاء من آسيا الصغرى . وعكف على الإصلاح والبناء والبر وإقامة العدل وانتشرت مظلمته فوق المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . فلهجت الألسنة بالثناء عليه . وكان يجلس يومين ، من كل أسبوع ، يستمع للمظالم من عامة الناس ، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون – لذلك عندما اشتد عليه المرض ، خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم ، المسلمون بقرآنهم ، والمسيحيون بالإنجيلهم ، واليهود بتوراتهم .

فسأله الحكيم تباح حتب :

– هل انتفع الأقباط المسيحيون بمنزلك عند الوالى ؟

فأجاب موسى :

– لقد كان اختياره لى دليلاً على إيمانه بالمساواة بين الطوائف . وآمنت مثله بالمساواة . وحتى عندما رشحت له المهندسين المسيحيين لبناء الحصون والمساجد ،

كنت أتحرى الدقة بلا تحيز. والحاكم العادل ، يستخرج من معاونه خير ما عندهم ، فى كل ما هو قدوة لهم فيه .

وسأله الحكيم أمحتب وزير زوسر :

- وكيف كانت العلاقات بين الطوائف ؟

- على خير ما يكون . وكما لابد لها أن تكون فى ظل حاكم عادل . فى عهده أصبحت مصر شعباً واحداً ذا أديان ثلاثة . وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ، ويكثر عدد معتقيه .

واستأذن نحوت كاتب الآلهة فى توجيه سؤال ، وقال :

- لماذا سجن البطريك ميخائيل ، بطريك كنيسة الاسكندرية ؟

فأجاب موسى :

- 'لم يكن الذنب ذنبه' ، ولكنها كانت دسيمة من أسقف حقود يدعى سكا ، زعم لابن طولون أن البطريك يدخر ثروة طائلة ، ليس بحاجة إليها ، فطالبه ابن طولون بالتبرع بشيء من ثروته للمساهمة فى تجهيز جيش مصر ، للتصدى لجيوش أجنبية كانت تترصد بمصر على الحدود . وكان ابن طولون يتحفز لدفعها . فاعتذر البطريك بعدم استطاعته . فسجنه ابن طولون بتهمة الخيانة ، ولما تولى ابنه خمارويه ، بعد وفاته ، أطلق سراح البطريك ، وأرجعه مكرماً ، بعد أن تبين له وجه الحقيقة .

فقال أوزوريس :

- عرضت صفحة مشرقة ، فلتصحبك السلامة .

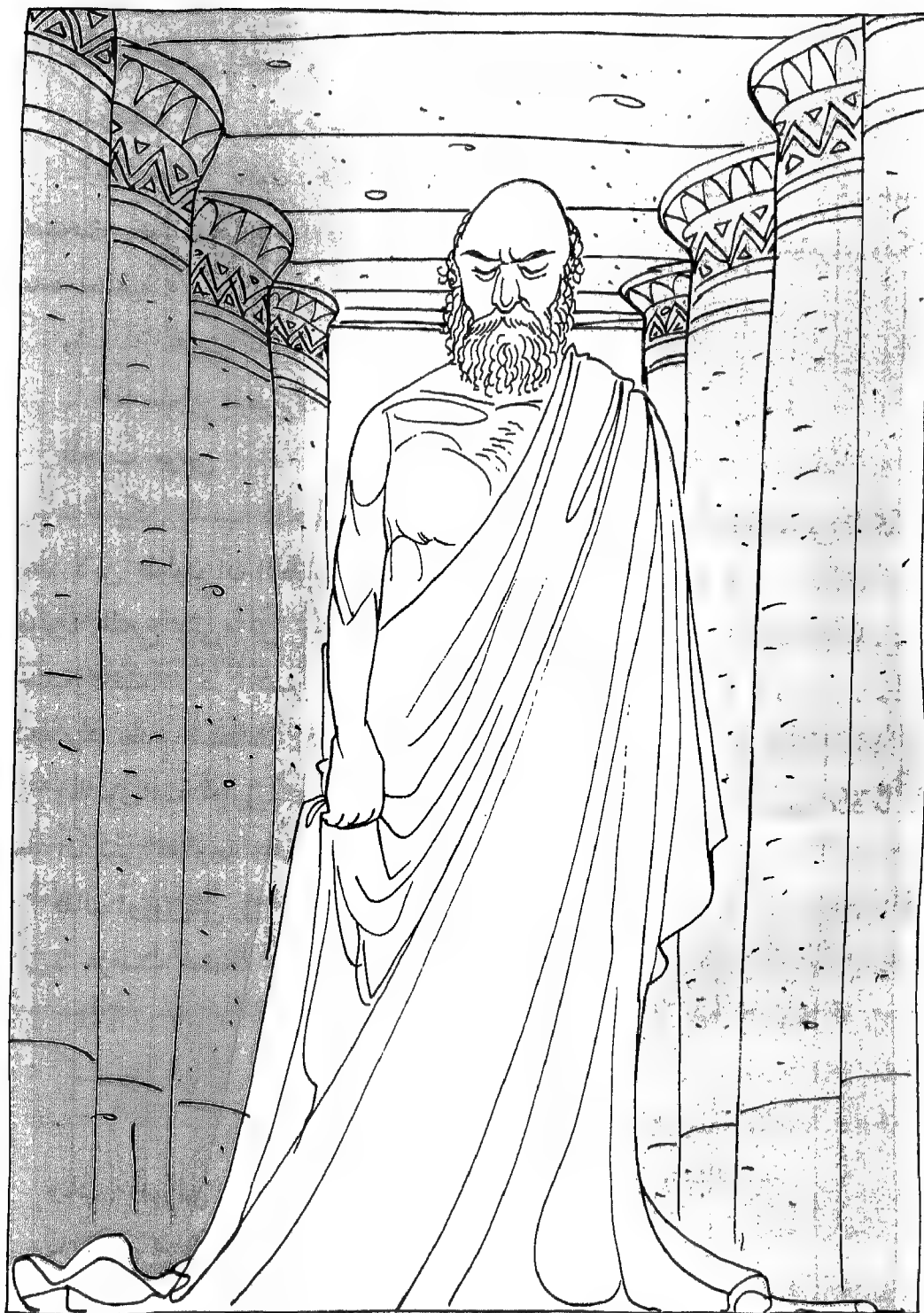
٢٠

ونادى حورس :

- على بك الكبير

فدخل رجل ذو طول وقوة . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقال أوزوريس :



– إنك أول حاكم أجنبي ، نستدعيه إلى محكمنا . فقد كانت سياستك ذات
مصرية خالصة ، لم تظهر من قبل . وها أنا أدعوك إلى الكلام .
فقال على بك الكبير :

– كنت في الأصل من ممالك إبراهيم كخيا . فبيّزني لشجاعتى . فصرت أحد
وات المعدودين . ثم رقيت شيخاً للبلد (ما يعادل رئيس الوزراء الآن) . وعند
، فكرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية التي كانت مصر تابعة لها . وتمّ لي
ردت . وسرعان ما خففت الضرائب ، وأقمت العدل ، ونفذت حكم الإسلام
نة ، فینعم بالسلام والأمان أهل مصر ، مسلمين ومسيحيين ويهوداً . ومددت
لانى حتى العربية والشام والنوبة .

ولولا خيانة أبى الذهب – أحد مماليكى المقربين – لكان لمصر مصير غير المصير .
ومت كريماً ، كما عشت كريماً .
وتكلم أخناتون ، فسأله :

– ألا يعتبر استقلالك بمصر ، تمزيقاً لوحدة الإسلام دين الإله الواحد ؟
فقال على بك الكبير :

– كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد ، تحت شعار إسلام زائف . وهالنى ما
، أهل مصر من عذاب . فوجدت أن السبيل الأوحى لاسعادهم فى ظلّ إسلام
سيق ، هو التحرر من العثمانيين .
فقال نحتمس الثالث :

– وبدأت مشكوراً فى استرداد بعض امبراطوريتى .
وقال امنمحت الأول (وكان ممن جاءوا فى دورهم من قبل ، وحكم له
لمجلوس بين الخالدين) :

– لم تنتفع بوصيتى التي دونتها عقب مؤامرة دبرت فى قصرى ، بيد أقرب
نربين لى ، وكدت أهلك ضحية لها !
فقال على بك الكبير :

– الحق أنى لم أسمع عنها . وقد كان لى فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكفينى .
كن «الحذر لا ينجى من القدر» .

فقال أوزوريس :

- إنك تستحق عندنا كرسى الخلود . وسنسجل ذلك فى تركيتنا لك .

٢١

ونادى حورس :

- السيد عمر مكرم .

فدخل رجل أقل من الطويل وفوق المتوسط ، بنيانه مستقيم ، ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- ولدت فى أسبوط ، وتلقيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفوة . ثم تبوأْتُ نقابة الأشراف . ودأبت على الدفاع عن الشعب المعذب . ولما جاء الفرنسيون لغزو مصر ، دعوت الشعب للقتال ، وسرت فى طبيعته . ولكن جيوشنا انهزمت ، واحتل الفرنسيون القاهرة . وقد اختارنى الفرنسيون لعضوية «الديوان»^(١) . نبحت عن المقابل له الآن رفضتها باباء . وهاجرت إلى سوريا تاركاً أموالى وأملاكى عرضة للنهب . ولما غزا الفرنسيون سوريا ، أعادنى نابليون إلى مصر مكرماً . ولكنى اعتزلت فى بيتى ولما ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها . فلما أُخمدت بقسوة هاجرت من مصر ثانية . ولم أعد إلا بعد جلاء الفرنسيين . وتزعمت الثورة على المماليك ، وعلى والى التركى - ثم بايعت حاكماً جديداً (محمد على باشا) لما لمست فيه من ميل إلى المصريين ، وجنوح إلى العدل والاستقامة . وحتى ذلك الحاكم قاومته ، لما تناسى تعهده لنا ، فنفاى ، وانتهت حياتى فى المنفى ..

وتكلم أبنوم ، فقال :

- إنك فرد من الشعب ، كرس حياتك للدفاع عن الشعب - دعاه للقتال لأول مرة منذ ثورقى المباركة . وثار على الحاكم الأجنبي ، وولى بقوة الشعب حاكماً

(١) مما يشبه مجلس الشورى حالياً

جديدًا . خبرني ، أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضًا ؟

فأجاب السيد عمر مكرم :

- كلا ، ولكنه كان مسلمًا وظهر لي عادلاً .

- يا للخسارة ، ولماذا لم تستول على الحكم ؟

- ما كانت الدولة العثمانية توافق على ذلك .

- أقول مرة أخرى ، يا للخسارة ..

فقال أخناتون :

- لعلك آثرت وحدة الإسلام .. دين الإله الواحد ؟

- أجل ، ذلك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله .

قالت إيزيس :

- على أى حال .. فأني سعيدة بهذا الابن .

وقال أوزوريس :

- إنك تستحق مكانك بين الخالدين : وسنسجل ذلك في تركيتنا لك .

٢٢

ونادى حورس :

- محمد علي باشا .

فدخل رجل ملهى ، قوى البنيان مستقيمه . وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ولدت في مدينة قولة - نشأت يتيماً - ولما جاوزت العشر سنين انتظمت في

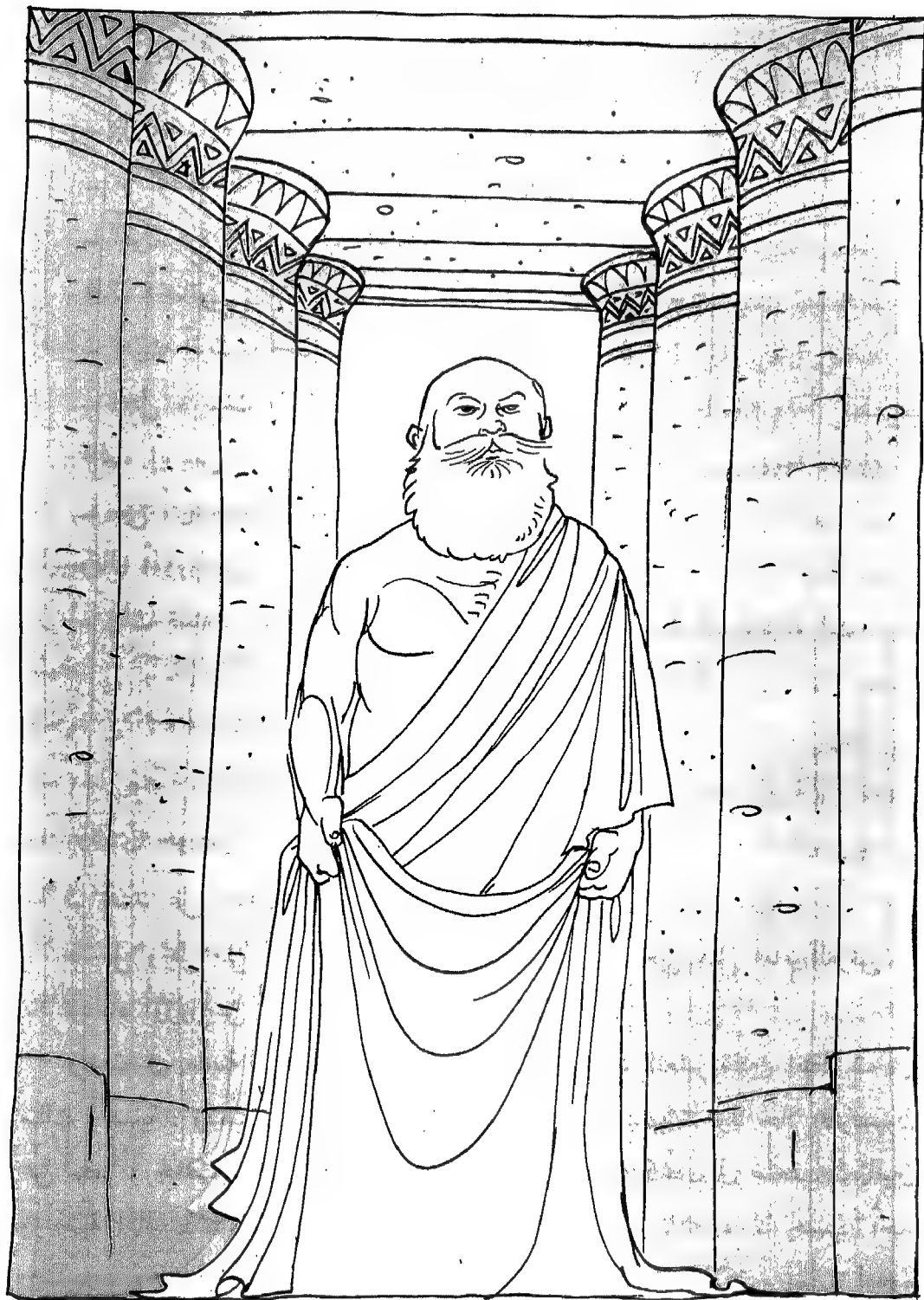
سلك الجندية . وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيين . ولما جلا الفرنسيون

عن مصر ، جعلت أدرس الأحوال وأفكر في المستقبل . فتكشفت لي ضعف العثمانيين

ووحشية المماليك الذين يحكمون باسمهم . وانتهت إلى قوة ثلاثة ، لا يحسب أحد

حسابها ، وهى قوة أهالى البلاد وزعمائهم . فقررت أن أوثق علاقتي بهم ، لعلهم

يصلحون أساساً ، أقيم عليه دولة جديدة ، تستعيد من الماضى أمجاده الغابرة .



ونجحت في ذلك أيما نجاح - حتى خلع الأهالي الوالي التركي ، وبايعوني محله - واعترف الباب العالي^(١) بالأمر الواقع ، فاستتب لي الأمر. وشرعت في العمل . ولم أكف عنه حتى نهاية عمري .

تخلصت من المماليك وهم الشر المقيم . وتلقيت من الباب العالي أمراً بمحاربة الوهابيين في الجزيرة العربية ، فانتصرت عليهم . وكوّنت جيشاً من المصريين ، وفتحت السودان .

وأنشأت للجيش مدارس ومصانع . كما أنشأت أسطولاً مستعيناً في ذلك كله بالخبراء الفرنسيين .

ولم أغفل الإصلاح . فنظمت الإدارة والأمن ، وأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون ، وغرست الأشجار والحدائق . ومن آثارى الكبرى القناطر الخيرية .

كما أنشأت مدارس للطب ، وبنيت المستشفيات - وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا ، بلد الحضارة الحديثة . كما أنشأت أول مطبعة في الشرق وهي مطبعة بولاق .

وطلب منى الباب العالي أن أحارب عنه المتمردين في المورة والشام . فحققت انتصارات عظيمة ، حتى حلّ الرعب في قلب الباب العالي نفسه . فأراد أن يوقفني مند حدى - ولكنى حاربته ، وغزوت بلاده ، وكدت أستولى على عاصمته لولا تدخل الدول الأجنبية الكبرى ، التي خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدي - وتجمعت علىّ هذه الدول ، واضطرتني للخضوع للباب العالي ، نظير أن يجعل حكم مصر وراثياً في بيتي .

واضطرت لتصفية الجيش ، وكثير من المدارس والمصانع ، وساءت حال البلاد . ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلى .. ثم حياتي .

قال خوفو :

- كأنها أسرة فرعونية جديدة ، رغم أصلها الأجنبي - وقال تحتمس الثالث :

(١) مفر حكم الخلافة العثمانية تركيا

- لقد أعدت امبراطوريتي ، وأنى أشهد لقائدك بالبراعة . ولكنك فقدتها في أثناء حياتك . فهي أقصر الامبراطوريات عمراً في التاريخ .

وقال تحتّمس الثالث :

- إني أشهد لك بالعظمة . وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك . وكان بودى أن أتسامح معك ، لولا النهاية السريعة للأسيفة لامبراطوريتك وهي تعنى أن إدراكك - رغم ذكائك - كان ناقصاً . لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيداً ، فتحديثه ، وأنت لا تدري ، وعرضت نفسك لقوة لا تقدر عليها .

- اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبي حتى النهاية .

فقال له الحكيم بتاح حتب :

- هذا أيضاً لا يدفع عنك تهمة قصر النظر .

فقال محمد على :

- كانت هناك فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام انطلاقاً من مصر الفتية .

فقال أخناتون :

- إني أدرك ذلك تماماً . وأحيى طموحك لآحياء دولة الواحد الأحد .

فقال الملك خوفو :

- لبتك وضعت عبقريتك وأحلامك في تقوية مصر ، وقنعت بذلك .

وقال أبنوم :

- استخدمت الفلاح في سبيل الأرض والدولة . ومهما يكن من أمر ، فلن أنسى

لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم .

وهنا قالت إيزيس :

- من أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبي من أبنائى .

وقال أوزوريس :

- لو كانت هذه المحكمة هي صاحبة الفصل في تقرير مصيرك ، لوجهت إليك

نقدًا قاسيًا ، ثم حفظت لك حقك في مقعدك بين الخالدين .

وسنرفع بشأنك تقريراً إلى محكماتك الإسلامية ، ينوّ بأعمالك الجليلة ، وسيعتبر

في حملته تزكية لشخصك من مصر وآلهتها .

ونادى حورس :

- أحمد عرابي .

فدخل رجل مائل للطول ، ممتلئ الجسم بعض الشيء ، ذو رزانة ووقار .
فتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- حفظت القرآن صغيراً بقريتي بالشرقية ، وانتظمت في سلك الجندية في الرابعة عشرة . وصلت إلى رتبة قائممقام (عقيد) فكنت أول مصري يصل إلى هذه الرتبة . وكانت الرتب الكبيرة وقفا على الشراكة . وكان المصري محتقراً في وطنه . فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربية الشركسي المتحيز ، فقبض علينا . فثار الجند الوطنيون حتى أفرج عنا . ولمست ما يعانیه الشعب من ظلم ، فتحرّكت بالجيش إلى قصر عابدين ، وطالبت الخديو بإسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب . فقال لي «أنا ورثت ملك هذه البلاد ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» . فقلت «لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم» .

وقد انتصرنا على أعداء الشعب ، وتكون مجلس نيابي ووزارة وطنية . ثم تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريين من تولي شئونهم خوفاً على مصالحها . وخان الخديو الوطن ومعه بعض الانتهازيين . واتفقوا مع أعدائنا الإنجليز . ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ، ولكننا انهزمنا . وحوكمننا ، وحُكم علينا بالنفي المؤبد ومصادرة أملاكنا .

وتكلم الملك خوفاً فقال :

- ولكنك تحديت الجالس على العرش ، وخاطبته بما لا يُخاطب به الملوك .

فقال أوزوريس :

- تغيّر الزمان أيها الملك . فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة . صاروا يحكمون بالمشاركة مع الشعوب .

فقال خوفو :

- مشاركة الفلاحين في الحكم ، تعنى الفوضى .

فقال أبنوم :

- بل هى وثبة كبرى فى طريق الخير والتقدم .

وقال أحمد عرابى :

- كان الخديوى ورجاله من عنصر أجنبى .

فقال الملك مينا :

- لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة الأصل ، اندجت جميعها فى الوطن ، وأخلصت للعرش .

فقال أحمد عرابى :

- لم أكافح إلا العناصر التى رفضت الاندماج . والدليل على ذلك أن حزبي كان فيه وطنيون من أصل شركسى .

وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :

- كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة فى عبقريتها . وللأسف لم يتها لك ذلك .

فقال أحمد عرابى :

- بذلت أقصى ما لدى .

وقال رمسيس الثانى :

- كان يجب أن تقاتل حتى الموت بين جندك .

وقال أبنوم :

- وكان يجب أن تقضى على جميع أعدائك ، لتقضى على الخيانة فى مهدها .

فقال اخناتون :

- أنت رجل طيب القلب . فحدثك لك النهاية التى تحدث للقلوب الطيبة .

وقال الحكيم بتاح حتب :

- هكذا .. ثرت من أجل حرية الشعب ، فجزرت عليه احتلالاً أجنبياً .

وهنا قالت إيزيس :

- هذا ابن امتلأ قلبه بالنوايا الطيبة . ووهب شعبه ما يملك من حب غير محدود ، وقدرات محدودة . وقد تأمر الأعداء على تصفية ثورته . ولكنهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التي غرسها في الأرض الطيبة .
وقال أوزوريس :

- إني أعتبرك نوراً تألق في الظلمات التي أطبقت على وطنك - وقد عوقبت في حياتك بما يكفر عن أخطائك . فعسى أن تحظى بالبركات في ساحة محكمتك . وسننوه بمضلك .. بما تستحقه .

٢٤

ونادى حورس :

- مصطفى كامل .

فدخل شاب ممشوق القامة ، عذب الملامح . ومضى عارى الرأس حافى القدمين ، حتى مثل أمام العرش .
ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

- بلغت الوعي ، وأنا تلميذ ، في عصر الاحتلال البريطاني . فكرهته وصممت على محاربته . وشرعت في ذلك وأنا تلميذ . وزارنا في المدرسة جناب الخديو عباس الثاني ، فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية ، استجابت لها وطنيته وشبابه . وتوثقت بيني وبينه منذ ذلك اليوم علاقة وثيقة . فضى يمدني بالتشجيع والمال للتخلص من الاحتلال . واستقرت علاقتي على نفس النهج مع الخليفة ومع الجمعية الإسلامية . أما وجهتي وقبلتي في جميع الأحوال ، فكانت استقلال مصر وحريتها . من أجل ذلك تغير موقفى من الخديو عندما اتفق مع الاحتلال . وكانت حال الشعب لا تبعث على الأمل . ولكنى لم أقصر في إيقاظ وعيه الوطنى بالكلمة في الصحف والخطابة . كما قمت بالدعاية لقضية وطنى والخارج ، حتى عرفها الأحرار في أوروبا ، وخاصة فرنسا . ولما ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى في قرية دنشواى ، استنكرت أعمالهم الوحشية ، ونددت بالأحكام التى أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء .



فرعزت عرش طاغية الإنجليز في مصر حتى اضطرت بلاده إلى استدعائه . ثم أسست الحزب الوطنى . وهو أول حزب سياسى منظم أنشئ في مصر ، تضمن برنامجه الجلاء والدستور في ظل الدولة العثمانية . وواظبت على الجهاد في الداخل والخارج حتى أسلمت الروح في عز الشباب .
وتكلم بساماتيك الثالث (سبق أن جاء في دوره ، وحكم له بالجلوس بين الخالدين) وقال :

- لقد عاصرت الاحتلال الفارسى مثلما عاصرت أنت الاحتلال الإنجليزى . وحاولت مثلك إيقاظ الوعي الوطنى . فلما علم قبيز (ملك الفرس) بأمرى قتلنى دون تردد . فكيف تركك الإنجليز دون عقاب ؟
فقال مصطفى كامل :

- كان الاحتلال قد تمكن من تثبيت سيطرته الكاملة على البلاد . فلم ير بأسا من منح معارضيه شيئا من الحرية ، استهانة بهم في الواقع ، وتظاهرا أمام العالم بأنه يعطينا الحرية .

- زمانك وقرّ لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه . والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك . حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية . وهاجمت عدوك في الداخل والخارج دون عقاب . واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع شيئا . لم تقتل كما قتلت أنا . ولم تُنّف كما نفى أحمد عرابى .

فقال مصطفى كامل :

- أحمد عرابى جرّ على بلاده الاحتلال .

فقال له أبنوم :

- كيف يتهم الرجل ، وهو ما ثار ونفى إلا دفاعا عن شعبك ؟

فقال مصطفى كامل بإصرار :

- إني أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال .

فقال أبنوم :

- إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ . عشت حياتك في جو معطر بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية . لم تشم رائحة العرق ، ولم تكابد آلام

الجهاد الحقيقية ، ولم تتورّع عن ظلم الثائر الحقيقي .

وهنا قالت إيزيس :

- إنه الابن الذى أيقظت حماسه الوجدان الوطنى بعد أن كاد الاحتلال يخنق أنفاسه .

وقال أوزوريس :

- لم يكن بوسعك أن تفعل خيرا مما فعلت . ولن ينسى لك فضل كلماتك . فأذهب إلى محكماتك مصحوبا بدعواتنا القلبية .

٢٥

ونادى حورس :

- محمد فريد .

فدخل رجل متوسط القامة ، ممتلئ الوجه . وتقدم عارى الرأس ، حافى القدمين ، حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- انحدرت من أسرة عريقة فى الارستقراطية . وشاركت مصطفى كامل فى موقفه الوطنى منذ بدايته . وبسبب ذلك ، استقلت من الحكومة ، وتفرغت للقضية الوطنية قبل كل شىء . وتوثقت العلاقة بينى وبين مصطفى . فرشحنى لخلافته فى رئاسة الحزب . وقد سرت على نهجه فى الوطنية والخطابة والكتابة ، حتى قبض علىّ وزج بى فى السجن . وفى السجن ساومونى كى أخفف من عنف موقفى لقاء العفو ، فرفضت أى مساومة . ولما خرجت من السجن ، كنت أصلب عودا ، وأشد مراسا . وقت برحلات فى البلاد أدعو فيها للوطنية . فدُبّرت مؤامرات لادخالى السجن مع قادة الحزب الكبار . فقررارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد فى الخارج . وأحكمتنا التدبير للهرب فى الوقت المناسب . ونجحنا فى ذلك . وبقدر ما أنجزنا من كسب لقضية مصر فى الخارج . بقدر ما تعرض الحزب فى الداخل للضعف والتفكك . وكابدنا المرّ من الحنين إلى مصر والأهل ، ومن تحلى الكثيرين عنا . وقامت فى مصر

ثورة ١٩١٩ ، ثورة غير متوقعة . قامت وأنا منسى في المنفى ، وآخرون يتربعون على كراسى الزعامة . وقد أظهرنا رضانا على رجالها ، مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم . وهنأنا الأمة على ثورتها . وحيينا ذكرى شهدائها . ودعوناها إلى الصمود حتى النهاية . وانتهت حياتنا في المنفى .

وتكلم بساماتيك الثالث ، فقال :

- زعامة غطى عليها ما تعرضت له من اضطهاد .

وقال الحكيم بتاح حتب :

- كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير ، كسائر رجال طبقتك الثرية . ولكنك رميت ذلك كله ، واخترت النضال والعذاب في سبيل مصر . إنك رجل عظيم .

أما أبنوم ، فقال :

- خبرني ، كيف يترك زعيمٌ ، أمته في محنة ، ليجاهد في الخارج ؟

فقال محمد فريد :

- كان الجهاد في الخارج ضمن خططنا الوطنية ، منذ أيام مصطفى كامل ..

فقال أبنوم :

- قد يُقبل كعمل إضافي ، يستكمل به العمل الأصلي في الداخل . أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقية ، فهو تصرف بعيد عن الحكمة . لا أنكر وطنيتك ، ولكن ..

فقالت إيزيس :

- أما أنا فأعتبره من خير أبنائي خلقا وإخلاصا ووطنية .

ولم يكن في وسعه أن يفعل خيرا مما فعل ، مع مراعاة ظروف مولده ونشأته .

وقال أوزوريس :

- لك منا ترقية يسندها الحب والاحترام . فأذهب سلام إلى محمكتك مع أصدق

تمنيات التوفيق .

ونادى حورس :

- سعد زغلول .

فدخل رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، قوى القسما ، جذاب الملامح .
وتقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .
ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- ولدت فى إيبانه . درست فى الأزهر . تتلمذت على جمال الدين الأفغانى .
عملت محررا بالوقائع المصرية تحت رئاسة وأستاذية محمد عبده . انضمت إلى
العرايين فى ثورتهم . وفى أول عهد الاحتلال البريطانى اعتقلت كعضو فى جمعية
الانتقام ، وفصلت من وظيفتى . فعملت فى المحاماة ، فالقضاء . اخترت وزيرا
للمعارف ثم وزيرا للعدل . وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان الهدنة ،
توليت زعامة الحركة الوطنية . وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية بين المسلمين
والمسيحيين . وناديت بحق مصر فى الحرية والاستقلال . فقبضت على السلطات
البريطانية ، وفتنتى إلى جزيرة مالطة . وما أن ذاع الخبر ، حتى قامت الثورة الشعبية
على نفى ، وطالبت بالاستقلال ، مما اضطر انجلترا إلى الإفراج عنى . وسافرت مع
أعضاء الوفد المصرى إلى باريس ، لعرض قضيتنا على مؤتمر الصلح هناك . فأغلق
أبوابه فى وجوهنا . ودخلنا فى مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة . وحدث انقسام فى
الوفد . ورجعت إلى مصر . ثم نفيت مرة أخرى إلى جزر سيشيل فى المحيط الهندى .
ولم يفرج عنى إلا سنة ١٩٢٣ . وتوليت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبية .
ودخلت فى المفاوضات التى سرعان ما فشلت . واضطرت إلى الاستقالة عقب
اغتيال أحد كبار الإنجليز . ثم ائتلفت الأحزاب أمام ديكتاتورية الملك فؤاد . وتوليت
رياسة مجلس النواب ، تاركا رياسة الوزارة للدستوريين . ودارت المفاوضات من
جديد . ولكنى غادرت الدنيا ، قبل أن أعرف نتائجها .

وتكلم أبنوم ، فقال :

- قت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة ، وقت أنت بالثورة الشعبية

الثانية بعد آلاف السنين . فأنت أخى وخليفتى وحبيبى .

فقال الملك خوفو :

- هناك فرق بين الثورتين يجب أن يذكر . فتورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة ، أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله ، فقراء وأغنياء ، على الاحتلال الأجنبي .

وقال الملك مينا :

- لقد وُحِّدَت المصريين ، كما وُحِّدَت أنا مملكتهم . فأنت فى ذلك صديق وخليفتى .

وسأله أُمَحْتَب وزير الملك زوسر :

- رغم ما تحقق لك من زعامة بعد الثورة ، فقد قبلت العمل فى ظل الاحتلال قبل الثورة ، ولم تنضم للحزب الوطنى . ما تفسير ذلك ؟
فقال سعد زغلول :

- كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية . منها : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . ومنها مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها . كيف نترك الوظائف العامة للأجانب ؟ لقد قبلت الحياة الرسمية لأمارس من خلالها ، ما استطعته من مقاومة ، ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها : وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى .

فقال أوزوريس مخاطبا الجميع :

- نحن فى هذه المحكمة لا نناقش إلا الأعمال الفاصلة .

ثم خاطب سعدا قائلاً :

- قال خصومك إن الثورة قامت وأنت فى المنفى . وأنت لم تفعل شيئاً لاشعالها . بل إنك دهشت لقيامها ، وكانت حدثاً غير متوقع . فما قولك فى ذلك ؟
فقال سعد زغلول :

- كانت حال البلاد تدعو لليأس . وأعترف بأننى دهشت لقيام الثورة ، كما دهش الزعيم السابق محمد فريد .

ولكنى لم أقصر فى تهيئة الجو لها بالخطابة فى كل مناسبة ، والاجتماع بالناس فى

بيتي ، وفي دعوتهم في الريف والمدن مما عبأ الشعور القومي . والثورة قامت احتجاجا على نفي . فكان شخصي في الواقع هو مشعلها المباشر .

فقال أوزوريس :

- وقيل أيضا ، إن تعصبك لزعامتك هو ما دفع العقلاء من زملائك للانشقاق عليك . فما قولك في ذلك ؟

فقال سعد زغلول :

- المسألة أنني اندججت في الثورة وآمنت بها ، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة .

وقال بعض زملائك ، كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رئاسة الوزارة ؟

فقال سعد زغلول :

- كانت وزارتي امتدادا للثورة على المستوى الرسمي .

فقال أبنوم :

- كنت أفضل أن تأخذ برأي هؤلاء الزملاء .

وهنا قالت إيزيس :

- لتبارك الالهة هذا الابن العظيم البار . لقد برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت .

وقال أوزوريس :

- إنك أول مصري يتولى الحكم منذ العهد الفرعوني . وتوليته بإرادة الشعب . من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك . وسوف تمضي بعد ذلك إلى محكمتك في الآخرة ، مصحوبا بتركيتنا وصادق أمانينا .



ونادى حورس :

- مصطفى النحاس .

فدخل رجل قوى الجسم والوجه ، مائل للطول . تقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- ولدت فى سمنود ، فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء . وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى . ولتفوقى عينت فى القضاء ، فعرفت بالعدل والتزاهة . وكنت من أنصار الحزب الوطنى ، فكنت زميلا لرئيسه فى المدرسة الخديوية . وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول ، اختارنى عضوا فيه . ونفيت معه إلى سيشيل عام ١٩٢١ . واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية . وعقب وفاته انتخبت رئيسا للوفد . وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان . وقد توليت الوزارة سبع مرات . وجرت إقالتي منها ست مرات ، لخلافات مع الإنجليز أو الملك . وفى عام ١٩٣٦ ، وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية ، قبلت الائتلاف مع الأحزاب . وعقدنا معاهدة مع الإنجليز ، اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلء بعد عشرين عاما . وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبداد ملكى ، واتهم الملك (فاروق) بالاتصال بأعداء الإنجليز ، فنشبت أزمة سياسية خطيرة ، وفكر الإنجليز فى خلع الملك . وتقدمت لانقاذ البلاد والعرش ، وألفت وزارة فى ظروف عسيرة . ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز ، شرعت فى المطالبة بالجلء الفورى . ولكن الملك أقالنى ، ورجع الملك إلى استبداده . وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، حتى اضطر الملك إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠ ، فرجعت إلى الوزارة . وفاوضت الإنجليز من أجل الجلء . ولما لم أجد منهم استجابة ، ألغيت المعاهدة ، وأعلنت الجلء . فتآمر على أعدائى فى الداخل والخارج ، واستطاع الملك أن يتخلص منى . وقامت ثورة يوليو ، واضطرت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل .

فقال أوزوريس :

- يهـم الحاضرين أن يعرفوا بعض الانجازات التي قدمتها في أثناء توليكم الوزارة .

فقال مصطفى النحاس :

- بالرغم من أن الشعب لم يحكم إلا ثمانية أعوام ، نظير تسعة عشر عاما استبدّ فيها الملك وأحزاب الأقلية بالسلطة ، وبالرغم مما تعرضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكررة لاغتيال حياتي ، فقد وفقني الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة . منها على سبيل المثال : إلغاء الامتيازات الأجنبية ، إلغاء صندوق الدين ، تأسيس جامعة الدول العربية ، استقلال القضاء ، استقلال الجامعة ، قانون التوظيف ، منع الأجانب من تملك الأراضي الزراعية ، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الاجباري ضدها ، الاعتراف بنقابات العمال ، فرض استعمال اللغة العربية في الشركات الأجنبية ، الضمان الاجتماعي ، ديوان المحاسبة ، مجانية التعليم الابتدائي والثانوي والمتوسط .

وقال أنوم :

- مرحبا بالثائر الشعبي الثالث في حياة شعبنا . وقد استمد قوته من إيمانه بشعبه وإلهه ، واتسمت حياته بالكفاح الطويل والتراخه ، وعاش فقيرا ومات فقيرا .
وقال الملك أخناتون :

- تقبل حبي أيها الزعيم . أنك مثلي تفانيت في الإيمان بالله الواحد ، والإخلاص للمبادئ الطاهرة . ومثلي أيضا في حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم ، ومثلي أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر ، وما ابتليت به من الجحود والهزيمة . ولكن أبشر ، فالنصر في النهاية لنا ..

وهنا قالت إيزيس :

- وهذا ابن أصيل من أبنائي البررة .

فقال أوزوريس :

- أهبك حق الجلوس مع الخالدين حتى نهاية المحاكمة ، ثم تمضي إلى محكمتك مشفوعا بأكرم تركية .

ونادى حورس :

- جمال عبد الناصر .

فدخل رجل طويل القامة ، واضح الملامح ، عظيم الشخصية ، ومضى فى سيره حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

- أنتمى إلى قرية بنى مر من أعمال أسيوط ، ونشأت فى أسرة فقيرة من أبناء الشعب ، فكابدت مرارة العيش وشدته . وتخرجت من الكلية الحربية عام ١٩٣٨ .

واشتركت فى حرب فلسطين . وحوصرت مع من حوصر فى الفالوجا . وقد هالتنى الهزيمة ، وهالتنى أكثر جذورها الممتدة فى أعماق الوطن . فخطر لى أن أنقل المعركة إلى الداخل ، حيث أعداء البلاد الحقيقيون . وأنشأت فى سرية وحذر ، تنظيم الضباط الأحرار . وتابعت الأحداث ، انتظارا للخطوة المناسبة ، للانقضاض على النظام القائم وقد حققت هدفى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ثم تابعت إنجازات الثورة ، مثل إلغاء النظام الملكى ، واستكمال استقلال البلاد بالجلء التام ، والقضاء على الاقطاع بإصدار قانون الإصلاح الزراعى ، وتمصير الاقتصاد ، والتخطيط لإصلاح شامل فى الزراعة والصناعة ، يستهدف خير الشعب وتذويب الفوارق الطبقية ، وبنينا السد العالى ، وأنشأنا القطاع العام متجهين نحو طريق الاشتراكية ، وكونا جيشا حديثا قويا ، ونشرنا الدعوة للوحدة العربية ، وساندنا كل ثورة عربية أو إفريقية ، وأممنا قناة السويس ، فكنا منارة وقدوة للعالم الثالث كله فى نضاله ضد الاستعمار الخارجى والاستغلال الداخلى ، وحظى الشعب الكادح فى عهدى بعزة وقوة لم يعرفها من قبل ، ولأول مرة يشق طريقه إلى المجالس التشريعية والجامعات ويشعر بأن الأرض أرضه والوطن وطنه .

وقد تربصت بى قوى الاستعمار حتى أنزلت بى هزيمة منكرة فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، فزلزلت العمل العظيم من جذوره ، وقضت علىّ بما يشبه الموت قبل موافاقى لأجلى بثلاثة أعوام .



وقد عشت مصر يا عربيا مخلصا ، ومت مصر يا عربيا شهيدا .

وتكلم الملك رمسيس الثانى ، فقال :

- دعنى أعرب لك عن عظيم حبي وإعجابي . وحبي لك هو امتداد لحبي لذاتى .
فما أكثر أوجه الشبه التى تجمع بيننا . كلانا يشعّ عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده ،
وكلانا جعل من هزيمته نصرا فاق كل نصر . وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة ،
فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه . وقد ساعدنى الحظ بأن توليت عرش مصر
وهى سيدة الأمم ، أما أنت فحكمتها وهى أمة صغيرة وسط عمالقة . وقد وهبتى الآلهة
طولا فى العمر وقوة فى الروح والجسد ، وضئت عليك إلا بالقليل ، فعاجلك الأجل
قبل الأوان .

وتكلم الملك مينا ، فقال :

- ولكن اهتمامك بالوحدة العربية فاق اهتمامك بالوحدة المصرية ، فحتى اسم
مصر الخالد شطبه بجرة قلم . واضطرت العديد من أبناء مصر إلى الهجرة ، التى لم
يمارسوها إلا فى فترات قهر عابرة .

فقال جمال عبد الناصر :

- ليس الذنب ذنبى ، إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربية تعنى الضياع
لهم . وليس الذنب ذنبى ، إذا تحققت أعمال مجيدة على يدي ، بعد أن عجز
السابقون عن تحقيقها . فالحق أن تاريخ مصر الحقيقى بدأ مع ٢٣ يولييه ١٩٥٢ .
وسرت هممة بين الجالسين ، وأخذت تشتد ، حتى هتف أوزوريس :
- النظام والهدوء أيها السادة . افسحوا صدوركم لأى قول يقال ..

فقال الملك تحتمس الثالث :

- على الرغم من نشأتك العسكرية ، فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات
إلا المجال العسكرى . بل إنك لم تكن قائدا له شأن ، بأى حال من الأحوال .
فقال جمال عبد الناصر :

- تعذّر على النصر على جيش متفوق فى التسليح وتؤيده أقوى دولة على سطح
الأرض .

فقال أمحتب وزير الملك زوسر :

- كان واجبك أن تتجنب الحرب ، وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى .

فقال جمال عبد الناصر :

- كان ذلك يتناقض مع أهدافي . كما أني خدعت أكثر من مرة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

- عذر أقبح من الذنب .

وقال سعد زغلول :

- لقد حاولت أن تمحو اسمي من الوجود ، كما محوت اسم مصر . رغم ذلك ، لم أضمر لك الرفض . واعتبرت تجنبك على نزوة شباب ، يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة . لقد قامت الثورة العراقية ، فناضلت نضالا كريما ، وأُحْبِطت إحياءا أليما . وقامت ثورة ١٩١٩ ، فحققت من الانجازات المجيدة ما شهد به التاريخ . ولكن تكاثرت أعداؤها حتى اجتاحتها حريق القاهرة . ثم جاءت ثورتك ، فتخلصت من الأعداء ، وأتممت رسالة الثورتين السابقتين . وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكري ، إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده . وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها ، وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا . ولكن اندفاعك المضلل في الطريق الاستبدادي هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من نكبات ونتائج عكسية .

فقال جمال عبد الناصر :

- كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية ..

فقال مصطفى النحاس :

- حجة دكتاتورية واهية .. طالما سمعناها من أعداء الأمة . لقد انهلت بدباباتك على القاعدة الوفدية الشعبية ، وعجزت عن إقامة بديل عنها . فظلت البلاد تعاني الفراغ . ووقعت في تناقض مؤسف بين عمل إصلاحى يعتبر في روحه امتدادا لروح الوفد ، وبين أسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات ، حتى قضى أسلوبك في الحكم على جميع النوايا الطيبة .

فقال جمال عبد الناصر :

- الديمقراطية الحقيقية ، كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر .

فقال مصطفى النحاس :

- وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان . ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء . ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين ، وهم طليعة أبناء الأمة . انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا ، حتى أذلت كرامتهم ، وأهنت إنسانيتهم ، ومحقت إيجابيتهم ، وخربت بناء شخصياتهم ، والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها . وهم الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع فى شتى النشاطات السياسية والاقتصادية والثقافية . بل أفسد استبدادك أجمل قراراتك . انظر كيف فسد التعليم ، وتفسخ القطاع العام ، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المحجلة والخسائر الفادحة . لم تستفد من الرأى الآخر ، ولم تتعظ بتجربة محمد على ، وماذا كانت النتيجة ؟ .. دوى ، وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب .. فقال جمال عبد الناصر :

- لقد نقلت وطنى من حال إلى حال ، كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها . وسوف تعالج السلبيات حتى تزول ، وينساها الزمن ، ويبقى ما ينفع الناس . وعند ذلك يقر الناس بعظمى الحقيقة .

فقال مصطفى النحاس :

- ليتك تواضعت فى طموحك . ليتك عكفت على إصلاح وطنك ، وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة .

إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم . إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن . ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الامبريالية العالمية . وآسفاه ، لقد ضيعت على مصر فرصة لم تتح لها من قبل .

فلأول مرة يحكمها ابن وطنى من أبناء البلاد ، دون مناوى من ملك أو مستعمر . ولكنه بدلا من أن يداوى ابن وطنه المريض ، دفع به إلى مباراة البطولة العالمية ، وهو مثقل بأمراضه .. فكانت النتيجة أن خسر هذا الابن البطولة وخسر نفسه ..

وهنا قالت إيزيس :

- إن فرحتى برجوع العرش إلى أحد أبنائى لا تقدر .. وأعماله الجليلة تحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجل عليها .. أما أخطاؤه .. فلا أدرى كيف أدفع عنها ؟ فقال أوزوريس :

- لو كانت محكمتنا هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى الحكم عليك ، لتطلب العدل منا ، التأمل والعناء الطويلين .. قبل أن نصل إلى حكمنا الأخير .

فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات ..

وقليلون من أنزلوا بها مثل ما أنزلت من إساءات ..

ولكن ، بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائى ، وأول من ينحص الكادحين برعايته ..

فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاکمة .. وستذهب بعد ذلك إلى حسابك فى الآخرة ، مؤيدا بتركية مناسبة .

٢٩

ونادى حورس :

- محمد أنور السادات .

فدخل رجل متوسط القامة ، رشيق القد ، عميق السمرة . ومضى فى سيره حتى مثل أمام العرش . ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

- ولدت فى قرية ميت أبو الكوم ، ونشأت فى أسرة فقيرة ، ووجدت عناء لا يستهان به كى أستمروا فى الدراسة . وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى . وشاركت فى المظاهرات الوفدية . ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية بعد أن فتحت أبوابها لأمثالى من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦ .

ومنذ تخرجى ، هالنى وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية . وخامرتنى أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز . فأنشأت أول تنظيم سرى فى الجيش عام ١٩٣٩ . وقد اتصلت بالإخوان المسلمين ، وأعجبت بنشاطهم . كما

حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان (أعداء الإنجليز الذين يحتلون مصر) ، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين . وقد قبض على نتيجة لذلك ، وحوكمت ، ولكن نلت البراءة ، بل رجعت إلى خدمة الجيش . وفي ذلك الوقت ، اتصل بي جمال عبد الناصر وضمّني إلى تنظيمه .

وقامت الثورة في يوليو ١٩٥٢ . وتتابعت الأحداث ، حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر . فخلفته في منصبه في ظرف بالغ الدقة .

وكنت على علم بالسلبات التي نخرت في عظام عبد الناصر . فتوثبت لاحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذي تتردى فيه . قضيت على مراكز القوى . وانجّمت على مهل ، نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية .

وفي ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت العدو المحتل (إسرائيل) ، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد . وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط ، وانتشل شرفنا من الهوان .

تم قت بمغامرة أخرى ، باقتحامى بلد الأعداء ، أدعو إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح . وانتهى سعي الطويل إلى معاهدة كامب دافيد للسلام . وناديت بالانفتاح لانقاذ الاقتصاد الوطنى . وتقدمت في الديمقراطية خطوات جديدة . ولكن اعترضتني عقبات غيّرت من حساباتى . فقد انخرفت المعارضة ، وهبّ التيار الدينى يهدد البلاد بالعنف . فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفرّ منه . ولكن الأمور انتهت باغتيالى في ذكرى اليوم الذى حققت فيه لوطنى .. عزّة النصر .

وتكلم الملك أحناتون ، فقال :

- أحييك كداعية من دعاة السلام . ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة . فقد تلقيت منهم نفس التهمة لنفس السبب . .

فقال تحتّمس الثالث :

- يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى ، الذى انتهى بمعاهدة سلام ،

والزواج من ابنة ملك الحيثيين :

فقال رمسيس الثانى :



- الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه . ومن هذا المنطلق ، يقوم بالحرب أو
يخضع إلى السلام .

فقال أنور السادات :

- وقد آمنت بصدق ، بعدم جدوى الاستمرار في الحرب .

وقال الملك أمنتب الثالث :

- ما أشبهك بي - أيها الرئيس - في حب الرفاهية لشعبك ولنفسك . كلانا عشق
الأبهة ، والنعيم ، والعظمة ، والقصور . غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا
كدر ، أما زمانك فأذاقك الحلو والمر . دعنى أعرب لك عن حبي وعطفي .

وقال الملك حورمحب :

- أنت توليت الحكم في ظروف تشبه - في بعض نواحيها - الظروف التي تحدثني
أول حكمي ، عقب وفاة الملك العجوز آي . وأعترف بأنك قتت بأعمال جلييلة ،
ووجهت ضربات صادقة ، ولكنك تهاونت في معاقبة الفساد والمفسدين ، حتى
أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم .

فقال أنور السادات :

- شغلت بتشجيع الانفتاح عن الضرب على أيدي المفسدين .

فقال حورمحب :

- لا قيام لدولة إلا على الانضباط والقيم .

وسأله جمال عبد الناصر :

- كيف هان عليك أن تقف من ذكرى هذا الموقف الغادر ؟

فقال أنور السادات :

- اتخذت هذا الموقف مضطرا . إذ قامت سياستى في جوهرها على تصحيح
الأخطاء التي ورثتها عن عهدك .

- ولكنك في عهدي ، كنت راضيا ومشجعا وصديقا ؟

- من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف له في زمن رعب أسود ، خاف فيه
الأب من ابنه ، والأخ من أخيه .

- والنصر الذي أحرزته ، ليس إلا ثمرة استعدادى الطويل له .

فقال أنور السادات :

- ما كان لمهزوم مثلك أن يحقق انتصارا . إننى أرجعت للشعب حريته وكرامته ، ثم قدته إلى نصر أكيد .
- ثم تنازلت عن كل شيء ، فى سبيل سلام مهين ، فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة ، وقضيت على مصر بالانعزال ..

فقال أنور السادات :

- لقد ورثت عنك وطننا يترنح على هاوية الفناء ، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة ، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى ..
- واستبدلت بالعملاق الذى طالما ساندنا ، العملاق الذى طالما ناصبنا العداء .
- اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل . وصدقت الحوادث حساباتى .
- واندلقت فى الانفتاح ، حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد . وبقدر ما كان عهدى أمانا للفقراء ، كان عهدك أمانا للأغنياء والصوص .

فقال أنور السادات :

- لقد عملت لخير مصر ، فوثب الأنهاريون من وراء ظهري :
- وتكلم مصطفى النحاس ، فقال :
- حاولت اغتيال ، وكدت تنجح ، لولا العناية الإلهية . ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال . فهل ياترى لاتزال تؤمن به ؟

فقال أنور السادات :

- نحتاج لأضعاف عمرنا .. لكى نتعلم الحكمة .

فقال مصطفى النحاس :

- وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية ، فدهشت .. ثم تبين لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس من على رأسه .. سلطاتك الديكتاتورية !
- أردت ديموقراطية ترعى آداب القرية ، وحقوق الأبوة .
- هذه ديموقراطية قبلية .

فقال سعد زغلول :

- هذا حق ، ولكن الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح ، فلا تغال فى لومه ..

وقال مصطفى النحاس :

- واشتدت الضائقة بالناس ، وحدث ما يحدث عادة في مثل تلك الظروف من مظاهر الفتن والتطرف . فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالي . ثم انفجرت بغتة ، فألقيت بالجميع في السجون ، فأغضبت المسلمين ، والمسيحيين ، والمتطرفين ، والمعتدلين .. وانتهى الأمر بمأساة المنصة ..

فقال أنور السادات :

- وجدت أنه لا مفر من ضربة حاسمة ، اتقاء لفوضى ، توشك أن تجر البلاد إلى حرب أهلية ..

فقال سعد زغلول :

- عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه ، فإنه يخلق من هذا الشعب خصما له . وعند ذلك تبدد قوة البلاد الأساسية في صراع داخلي .. بدلا من أن توجه للعمل الصالح .

وهنا قالت إيزيس :

- بفضل هذا الابن ، رُدَّت الروح إلى الوطن ، واستردت مصر استقلالها الكامل ، كما كان قبل الغزو الفارسي . وقد أخطأ كما أخطأ سواه ، وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون .

فقال أوزوريس :

- أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر ، وسوف تمضي بعد ذلك إلى حسابك في الآخرة مؤيدا بتركية مشرفة منا .

٣٠

قلَّب أوزوريس عينيه في الخالدين ، وقال :

- ها هي حياة مصر ، قد عرضت عليكم بكل أفراحها وأحزانها ، منذ وحدتها معنا ، وحتى استردت استقلالها على يد السادات . فلعل لبعضكم رؤية يريد أن ينوّه بها ؟

وطلب الملك أخناتون الكلمة ، ثم قال :

- أدعو للاستمسك بعبادة الإله الواحد ، باعتباره الخلود والتحرر من أى عبودية أرضية .

وقال الملك مينا :

- والحرص على وحدة الأرض والشعب . فالنكسة لا تجي ، إلا نتيجة للخلل يصيب هذه الوحدة .

وقال الملك خوفو :

- على مصر أن تؤمن بالعمل ، به شيدت الهرم ، وبه تواصل البناء .

وقال أمحتب وزير الملك زوسر :

- وأن تؤمن بالعلم ، فهو القوة التى حققت خلودها .

وقال الحكيم بتاح حتب :

- وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتنعم بنضارة الحياة ، وتنهل من رحيقها .

وقال أبنوم :

- وأن تؤمن بالشعب والثورة ، لتتابع مسيرتها نحو الكمال .

وقال الملك تحتمس الثالث :

- وأن تؤمن بالقوة التى تتحقق حين تلتحم بجيرانها .

وقال سعد زغلول :

- وأن يكون الحكم فيها من الشعب ، وبالشعب ، ومن أجل الشعب .

وقال جمال عبد الناصر :

- وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعية المطلقة .

وقال أنور السادات :

- وأن يكون هدفها الحضارة والسلام .

وهنا قالت إيزيس :

- ليضرع كل منكم إلى إلهه ، أن يهب أهل مصر الحكمة والقوة ، لتبقى على الزمان .. منارة الهدى والجمال .

فبسط الجميع أكفهم ، واستغرقوا فى الدعاء .

رقم الإيداع . ٨٩/٨٦١٤
الترقيم الدولي ٦٠ - ٣٣٦ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

الطبعة ١٦ شارع حراند حسي - هاتف ٣٩٣٤٨١٤ - ٣٩٣٤٥٧٨
بيروت، ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

هَذَا الْكِتَابُ

- شُرفت دار الشروق ، وحصلت من الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، على حق إصدار أعماله الأدبية للأطفال .
- ورأينا أن نبدأ برواياته التاريخية ، لتعرف منها أجيالنا الجديدة مسيرة تاريخهم ، وما صنعه الأجداد من حضارة سبقت كل الحضارات .
- فأصدرنا :

١ - عجائب الأقدار .

٢ - كفاح طيبة .

٣ - كفاح أحمر .

- واليوم نصدر « أمام العرش » .. المحاكمة التاريخية لحكام مصر وقادتها من الملك مينا حتى أنور السادات .

- وتمت اختياراتنا لمحاكمات كل الحكام والقادة الذين كانت لهم أدوارهم الرائدة والفاعلة والتي صنعت تاريخ مصر ، منذ كان لها تاريخ ، حتى اليوم .

- إن « أمام العرش » الذي نقدمه ، هو موسوعة تاريخية ، وتربية وطنية لأجيالنا الجديدة .. ليتعلموا منها الكثير الذي يثبت إيمانهم بمصرهم ، ويحفّزهم على العطاء الصادق المخلص لها .. أسوة بالسابقين من أبنائها الخالدين .

- وكما التزمنا .. قمنا بتيسير الرواية وتبسيطها ، وتقديمها وفق المتطلبات التربوية والفنية .. مع الحرص على أن تظل بنفس بنائها وأحداثها وشخصياتها .. وإلى حد كبير ، نفس لغتها وأسلوبها .. الأمر الذي يجعل الرواية ، بصيغتها هذه ، يقرأها الناشئون بفهم تام ، ويستمتعون بأحداثها كاملة ، ويسعدون أنهم تجاوزوا قراءة القصة .. إلى قراءة الرواية .

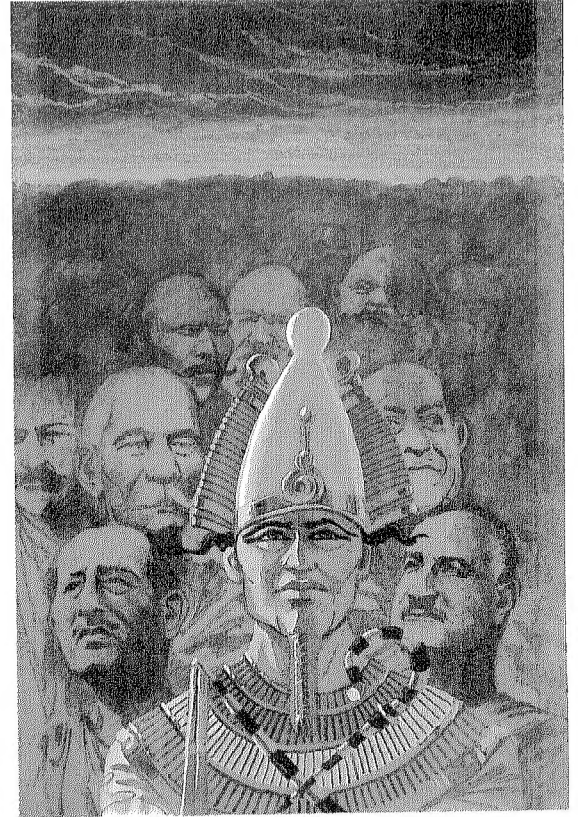
- وإذا كانت رقعة القراءة عالميا ، لكاتبنا الكبير ، قد اتسعت وتضاعفت بعد حصوله على جائزة نوبل العالمية للأدب ، وأصبحت أعماله تترجم إلى كل لغات العالم ..

- فإن دار الشروق يسعدنا أن يسهم مشروعها هذا ، في أن تتسع رقعة القراءة عربيا ، لكاتبنا الكبير ، وتمتد لتشمل القاعدة العريضة من أجيالنا الجديدة .. ذخيرتنا وعدتنا للمستقبل .

والله وليّ التوفيق ،

محمد العامر

أمام العرش



© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جراد حسن - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣